الفصل الثالث

وضع الصهيونية الراهن في العالم وفي إسرائيل

يقول البروفيسور (أمنون روبنشتاين) أحد المفكرين الصهيونيين (وزير سابق للعلوم، والتعليم وأحد زعماء ميريتس حاليًا)[1]

«غريبة دروب التاريخ، فبمناسبة مائة عام على إنشاء الحركة الصهيونية الهرتزلية، وبعد إنجازاتها الكبيرة خصوصًا تحقيق هجرة يهود الاتحاد السوفياتي (سابقًا) إلى إسرائيل، ها نحن نشهد من يهاجمها بشدة، لا سابقة لها من قلب بيتها.

فالهجوم على الصهيونية يجري شن حملته بموجب نفس العبارات التي يستخدمها روبينشتاين من ثلاثة اتجاهات: «1 من معسكر» اليهود المتدينين القوميين «الذين يرتدون ثياب الصهيونية، لكنهم كافرون بأساسها البشري.

(1) صحيفة هآريتس 10-6-1997 مقال لأمنون روبينشتاين في صفحة رأي حول (بوست زيونيزم)

2 من معسكر المتدينين اليهود (الحاراديم) المعادين للصهيونية الذين تضاعف تأثيرهم الانتخابي كثيرًا.

3 من معسكر مفكري «ما بعد الصهيونية Post Zionism».

ويرى البروفيسور روبنشتاين أن مفهوم «ما بعد الصهيونية»، يمثل «مجموعة أفكار وآراء مشتركة « سادت مؤخرًا بين مجموعة من علماء التاريخ «الجدد»، وبين علماء الاجتماع «الانتقاديين». ويضيف أن

«هذه المجموعة تتميز برؤية مستقلة جديدة وثورية، وباستعداد للتنكر، لكل ما هو أساس صهيوني، وبعض كتابها من أصحاب المعتقدات الماركسية الجديدة، لكن معظمهم، إن لم يكن جميعهم من أتباع المفهوم الذي أطلق عليه» ما بعد الحداثة «Post Modernism وهو مفهوم ينفي وجود تاريخ مكتوب بموضوعية، يوفر للباحث الاستناد إليه (علمًا أنه إذا وجد فهو لا يستطيع الوصول إليه دومًا)، وإنما هناك سلسلة نصوص تاريخية (سردية) تعبر عنها أيضًا مجموعة أخرى مختلفة، لا ينسجم التاريخ الرسمي المكتوب معها..وهذا ما يدعو المؤرخ الحديث، إلى الالتفات إلى ما جرى سرده، وعدم الاكتفاء بالشهادات، والوثائق المكتوبة، لأن الشك حول تحديدها بشكل أحادي الجانب على يد النخب، وإملائها من خلال المكانة الاجتماعية لهذه النخب أمر قائم دومًا».

ويضيف بأن مفهوم «ما بعد الصهيونية «نفسه ليس واحدًا، لأن قسمًا من النقد الذي يحمله مفهوم «ما بعد الصهيونية» يستند إلى

اعترافه بنجاح التجربة الصهيونية، من خلال صيغة تقول أنه «نظرًا لاقتراب اليوم الذي سيتحقق فيه وجود معظم الشعب اليهودي في إسرائيل، ونظرًا لأن الطوائف اليهودية في الشتات، لم تعد تجد نفسها معرضة للاضطهاد، ولأن كل من أراد الهجرة إلى إسرائيل، قد هاجر أو أنه يستطيع الهجرة إليها بسهولة، وبسرعة، فقد بات ممكنًا إتمام مسيرة التطبيع» أي تحويل إسرائيل إلى دولة ليست لليهود وحدهم».

يذكر أن (أتباع ما بعد الصهيونية) يرفضون تعبير «عاليا»، وهي التي يستخدمها المتدينون تاريخيا للدلالة على الهجرة إلى «الأرض الموعودة» و «تعني الصعود إلى إسرائيل»، ويستخدمون بدلًا منه «لي هاجير»، وهي نفس معنى يهاجر بالعربية)ويرى رابينوقيتش أنه:

في هذه الحالة لا تصبح إسرائيل «دولة يهودية» وإنما «دولة عادية» دولة جميع مواطنيها فقط، ولا تربطها صلة مميزة محصورة بيهود الشتات وحدهم. وهذا المفهوم يعتبر أن «حق العودة لكل يهودي إليها أصبح قانونًا مضى عليه الزمن، ولم يعد له قيمة عملية، أو نظرية، بل هو يفسد مصالح المجموع لأنه قانون ساقط، ويضر بالحقوق المتساوية لعرب إسرائيل أو (بحق عودة الفلسطينيين) عند من يدعم حقهم بالعودة.».

لكن روبنشتاين[1] يؤكد أن «أتباع هذا المفهوم لا يتنكرون لشرعية «القومية اليهودية» التي أنشأت دولة إسرائيل. وهم لا يطالبون بقطع

(1) مقال لروبنشتاين في موقعهamnonrubinstein.com (بالعبرية: اللغز التشريعي والحل الوسط – نشر في هآريتس أيضا)

الصلة النفسية، والأهلية القائمة بين يهود إسرائيل، والطوائف اليهودية في العالم، حسب الواقع الدارج في الدول الأخرى، التي قامت على الهجرة مثل الروابط التي تصل الأمريكيين الإيرلنديين بإيرلندا».

وباختصار يرى أتباع مفهوم «ما بعد الصهيونية» كما يقول روبنشتاين «أن الصهيونية، قد أنجزت الآن «مشروعها»، ولم يعد ثمة حاجة إليها، وهم لا يدينونها على ولادتها غير التقليدية، كما لا يرفضون عدالة تطلعاتها، وكفاحها منذ نشوئها..».

وينتهي البروفيسور روبنشتاين في معرض وصفه، وتحليله لمفهوم «مابعدالصهيونية» إلى اعتبار أن الخلاف معها ليس مجرد خلاف أكاديمي، أو نقدي، وإنما هو خلاف «أيديولوجي صهيوني» «تمامًا.. فأتباع ما بعد الصهيونية يعتبرون «القومية اليهودية» اختراعًا صهيونيًا مصطنعًا، ويصعب النقاش معهم، لأن كل ما نقوله يذكرهم «بتسلط النخبة».

وعلى صعيد آخر يعتبر «روبنشتاين» أن «مفكري ما بعد الصهيونية» على خلاف معسكر المتدينين (الحاراديم)، لا يملكون مجتمعًا انتخابيًا كما لا يؤثرون على جمهور الناخبين اليهود، لتحويلهم من اتجاه إلى آخر، اللهم باستثناء تحول مجموعة من أتباع «اليسار الصهيوني» إلى تيار حركة «حداش» (الحزب الشيوعي الإسرائيلي سابقًا).

لكنه يشير في تحليله، إلى أن المستفيد من آرائهم، هو اليمين الذي يحسن استغلال مواقفهم هذه، لاستقطاب قوى كثيرة داخل جمهور اليهود في إسرائيل.

وحول نفس موضوع الصهيونية، في هذا الزمن يقول يوسف بن شلومو بروفيسور الفلسفة في الجامعة العبرية في القدس: «لقد ماتت الصهيونية، وأنتم جميعًا يقع عليكم اللوم»، ويضيف مدافعًا عن الأيديولوجية الصهيونية: «إن الصهيونية أخلاقية، لأنها تمثل تطبيق الأيديولوجية المستمدة من فكرتها، فإذا لم أكن مؤمنًا بوجود حق أخلاقي لي بأرض إسرائيل، فسيصبح وجودي هنا غير أخلاقي. والعربي الموجود «كمواطن في إسرائيل ليس لديه حجة قومية أخلاقية».

لكن ما الذي دعاه لإعلان «موت الصهيونية»؟ يقول بن شلومو في مقابلة في برنامج أسبوعي يقدمه الصحفي دان مارغاليت في القناة الأولى الإسرائيلية بالعبرية(-1997أيلول16): «ما زال هناك مجال للتمسك بهذه الأيديولوجية، رغم أنني أعلن ذلك من خلال شعوري باليأس.. فالصهيونية ماتت في أوسلو. فأنا أذرف الدمع على الموت السياسي لأيديولوجيتي الصهيونية، لكنني سأتمسك بحقي في تنفيذ مشروعها من ناحية أخلاقية». والواضح أن بن شلومو الذي كان أحد أعمدة منظمة «غوش إيمونيوم» الدينية الصهيونية، يمثل تيارًا آخر في قلب الأيديولوجية الصهيونية، فهو يختلف مع روبنشتاين من موقع ديني صهيوني، وهو يختلف كذلك مع «مفهوم ما بعد الصهيونية» لأنه يريد استمرار المشروع الصهيوني بكامل أهدافه، التي تؤثر عليها سلبًا اتفاقات السلام، والدعوة إلى التطبيع الداخلي الإسرائيلي (دولة كافة مواطنيها)، وكذلك التطبيع الإسرائيلي مع الجوار العربي..

وفي دراسة تحليلية كتبها «أليعازار شفايد «بروفيسور الفلسفة اليهودية في الجامعة العبرية، والحائز على جائزة إسرائيل، [1] يؤكد شفايد أن «نقطة الخلاف الجوهرية مع أتباع ما بعد الصهيونية، تتعلق بالرأي الذي يحملونه حول «المشروع الصهيوني» فهم لا ينددون بالمنطق الصهيوني، ولا يعادونه، لكنهم يعتبرون أن «المشروع الصهيوني قد وصل إلى نهايته».

لكن المشروع الصهيوني كما أقرته المؤتمرات الصهيونية يقضي: «بتأسيس وطن قومي لليهود في أرض فلسطين «استنادًا إلى» الحق التوراتي» مما يعني أن العامل الحاسم في تحديد المساحة الجغرافية التي ينبغي أن يتأسس عليها هذا الوطن، بشكل عام، هو ما تقوله التوراة، والتلمود طالما أن الأيديولوجية الصهيونية استندت إليهما في السعي لتأسيس هذا الوطن اليهودي، والقومية اليهودية معًا.

وتوراة اليهود وتلمودها يحددان الأرض، التي منحها «رب إسرائيل» من الفرات إلى النيل.

وبما أن «إسرائيل» الراهنة قامت على 78 ٪، أو ما يزيد من أرض فلسطين الانتدابية، ولم تستوعب سوى 5,5 مليون يهودي من 12 مليون يهودي هو العدد الجمالي تقريبا لليهود في العالم، فالمشروع الصهيوني في هذه الحالة لم يستكمل أهدافه، وإنما أنجز منها حلقة، هي احتلال «فلسطين»، واستيعاب أقل من نصف يهود العالم تقريبًا

(1) «الصهيونية ومابعد الحداثة – اليعازار شفايد 1996 منشورات جروزليم – منظمة الصهيونية العالمية»

داخل دولة إسرائيل، كما هي على وضعها الجغرافي، والديموغرافي بوجود (مليون ونصف مليون عربي فلسطيني) في الوقت الحالي.

وهذا يعني أن وضع إسرائيل بحدودها الراهنة، لا يشكل بالتالي سوى الأرضية، والقاعدة المناسبتين لاستمرار السعي لتحقيق بقية أهداف المشروع الصهيوني الكبير.

وهذا ما يجعل الصهيونيين التقليديين المتمسكين باستمرارية المشروع الصهيوني، وأهدافه النهائية يعتبرون «إسرائيل» الراهنة مجرد قاعدة، يجب تهيئتها وإعدادها لإنجاز مهام المشروع الصهيوني الكبير.

والبروفيسور (أليعازار شفايد) يمثل تمامًا رأي هؤلاء، حين ينتقد أفكار «ما بعد الصهيونية» ويعتبر الخلاف معهم أيديولوجيًا وليس سياسيًا لأن معتقداتهم الصهيونية ترى «أن المشروع الصهيوني انتهى، أو ينبغي إنهاؤه عند «حلقة إسرائيل» الراهنة، والكف عن استمرار السعي لتحقيق بقية المهام، والأهداف.

يقول البروفيسور أليعازار شفايد في نفس دراسته بعنوان «صهيونية وما بعد الحداثة 1996- منشورات جروزليم -منظمة الصهيونية العالمية»

إن منظومة أفكار أتباع ما بعد الصهيونية معقدة، وغير موحدة، ومن المهم هنا الإشارة إلى أن طرحها الأيديولوجي، لا يمثله سوى حلقة صغيرة من الأتباع.

ومع أنهم يجدون آذانًا صاغية، لما يقولونه، في وسائل الإعلام المطبوعة والمرئية، ويعكسون آراء النخبة التي لا تتمتع إلا بنفوذ قليل، داخل المجتمع الإسرائيلي، إلا أنهم يمثلون أيضًا عملية اجتماعية، وسوسيولوجية أوسع، وأكثر نفوذًا مما نرغب بالاعتراف به.. فنفوذهم يتجلى كثيرًا في مظاهر سياسة الحكومة، والاتجاهات السياسية لعدد من الأحزاب السياسية في إسرائيل. ولذلك يتوجب علينا التفكير مليًا في هذه الظاهرة من ناحية أيديولوجية. فثمة نوعان من أيديولوجية «ما بعد الصهيونية» الأول يعتبر الصهيونية ما زالت مفضلة، بل ومفضلة جدًا، لكنه يتوصل إلى استنتاج، يفيد بأن الصهيونية حققت جميع أهدافها، ولم يبق لديها ما تقوم به. فقد تحقق لها إنجاز التطبيع بين طوائف الشعب اليهودي، سواء بالدقة التي تصورها بها هرتزل أو بأقل من ذلك.»

ولذلك يرى شفايد أن، هذا النوع يدعو إلى الاكتفاء بشن صراع، من أجل تحقيق الأهداف العادية للشعوب التي تعيش بأمان في بلدانها، مثل مستوى الحياة، وتعزيز الاستقرار، والرفاه الاجتماعي، والثقافي، ويتساءل عن الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا «الفكر الجديد داخل الأيديولوجية الصهيونية»؟ ومتى بدأ يظهر، ويجد أتباعًا داخل الحركة الصهيونية؟

يقول (شفايد): «وقع هذا التغيير في رأي الصهيونيين، أصحاب مفهوم «ما بعد الصهيونية» بعد حرب حزيران عام 1967، عندما ظهر التصور بأن دولة إسرائيل قد أثبتت متانتها، وتماسكها بشكل كاف، ولم يعد أحد قادرا على «قذفها إلى البحر»، وأنه لهذه الأسباب آن الأوان لاتخاذ الخطوات الأخيرة في تحقيق تطبيع للعلاقات مع جيرانها العرب».

ويضيف شفايد: «وكما نعرف جيدًا قام على خلفية هذا التصور، خلاف شعبي، حول طبيعة الخطوات المطلوبة بهذا الشأن، فكما يقول قطاع من قطاعات الشعب اليهودي في إسرائيل: مهدت حرب حزيران الطريق إلى تحقيق الهدف «الطوبائي «بل و»المسيحاني «لدولة إسرائيل، ويأمل أصحاب هذا التطور إلى رؤية إنجاز «إسرائيل الكبرى» عن طريق هجرة يهود «الاتحاد السوفياتي» سابقًا المكثفة إليها، وهذا سيوفر لإسرائيل، فرصة تحقيق هدفها، في تجميع يهود المنافي، وكذلك هدفها في السلام، لأن أعداءها سيجبرون على القبول بوجودها. «ويرى شفايد أن» بقية قطاعات الشعب، تعتقد أن السلام يتوجب العمل على تحقيقه فورًا، من أجل إتمام المشروع الصهيوني، لأن إسرائيل قد سجلت لنفسها إنجازات، تسمح لها بإجراء مفاوضات مع جيرانها، والتوصل إلى حلول وسط يكون من شأنها تعديل الظلم الذي لحق بالشعب الفلسطيني، وبالتالي تحقيق التطبيع، وهذا ما يمثل جوهر السلام الذي يتوج المشروع الصهيوني، ودوره معًا. و لذلك يفترض أتباع «ما بعد الصهيونية» الذين يعرفون أنفسهم على هذا النحو، أن على إسرائيل، التقدم نحو اتفاقية السلام كتجسيد إيجابي للمشروع الصهيوني.

وانطلاقًا من مفهومهم هذا، يعتبرون أن الصهيونية قد حققت هدفها، ويجب أن لا تناضل بعد الآن، من أجل ما هو أبعد من ذلك. «ويعرف شفايد:» النوع الثاني من أيديولوجية «ما بعد الصهيونية» بأنه «يمثل جوهريًا الانبعاث الجديد، للفكر المعادي للصهيونية، في مرحلة

ما قبل مذبحة اليهود في الحرب العالمية الثانية، وما قبل تأسيس الدولة.. وهذا النوع يضم متدينين يهودا (حارادیم)، وعلمانيين غير صهيونيين.»

وفي تحليله يكشف شفايد أن: «الحركة الصهيونية لم تمثل منذ نشوئها، وحتى إعلان الدولة، سوى أقلية من الشعب اليهودي. فقد عارضتها قطاعات كثيرة من الطوائف اليهودية، ولم تؤد كافة جهودها إلى نيل إجماع عند كافة اليهود. لكن بعد أن حدثت المذابح لليهود، في الحرب العالمية الثانية، وبعد تأسيس دولة إسرائيل، تحقق لها آنذاك فعلًا نوع من الإجماع النسبي، وتمكنت بعدها من تشكيل قاعدة اتفاق توحد كافة القطاعات اليهودية في إسرائيل، والعالم». ويعترف شفايد بتراجع هذا الإجماع المتوافق حين وقعت حرب حزيران 1967. يقول شفايد: «فبعد تلك الحرب، وحرب الاستنزاف في أعوام (1968 1970) وكذلك حرب تشرين 1973، بدأنا نسمع أصوات تدعو إلى إعادة تقييم مدى صحة الصهيونية. وكان العامل الأساسي الذي حرض على إعادة التقييم يعود إلى شعور الكثيرين من الشبان الإسرائيليين، بإن تحقيق أهداف الصهيونية كلها، يتطلب ثمنًا شخصيًا باهظًا جدًا، خصوصًا من الشبان».

ويعترف (شفايد) بالدور الأساسي الحاسم للمقاومة العربية ضد «المشروع الصهيوني»، و «دولته إسرائيل» في توليد هذا الشعور لدى الشباب الإسرائيلي، حين يقول: «وفي هذا السياق لم يغب عن العقل الصدمة القاسية لحرب تشرين 1973. فكثير من الشبان الإسرائيليين، توصلوا إلى نتيجة سلبية هي إن الثمن الذي يدفعونه لا يتكافأ مع المكسب الشخصي، الذي يحصلون عليه من تحقيق الهدف القومي

للدولة اليهودية، ومن هذا المنطلق أصبح من الضروري بحسب رأيهم التساؤل حول إذا ما كانت الصهيونية على صواب، أوعلى حق في مزاعمها. وبعبارة أخرى، حول إذا ما كانت الصهيونية تمثل حلًا لمشكلات، وصعوبات الشعب اليهودي؟».

ويضيف شفايد مشخصًا حالة الشعور اليهودي نحو الصهيونية:

«وبغض النظر عن الإحساس بالخطأ الشخصي، الذي يرتكبه هؤلاء الشبان كأفراد، إلا أنهم لاحظوا أن من حرر نفسه من دائرة الخوف، إنما هم يهود الشتات، وأن اليهود الذين يواجهون خطر التصفية والمذبحة، إنما هم اليهود الذين يعيشون في إسرائيل، أو حولها. وبالإضافة إلى هذا، بدأوا يستنتجون أنه حتى لو كانت إسرائيل قادرة على منع الكارثة عنهم، كما فعلت في حرب تشرين 1973، إلا أن الثمن الذي ستدفعه هذه المرة سيكون باهظًا جدًا، ولليهود خيارات أخرى غير تلك، من أجل الحفاظ على حياتهم. ومهد هذا الإحساس الطريق لظهور فكرة إعادة تقييم البعد الآخر الذي ولدته الصهيونية، وهو: أن ما يدفعونه من ثمن باهظ بسبب الحروب، بدأ يولد فيهم شعورا بالذنب، نحو الفلسطينيين باعتبارهم من المظلومين ».

لكن من وجهة نظري، ليس على يد «الخطيئة الصهيونية الأصلية». وقد أدى هذا الشعور، إلى تجدد النقاش حول هذه المسألة، لأنه كان من الواضح تمامًا لأصحابها أن جرحًا مفتوحًا، أخذ يتسع، ويعرقل إنهاء النزاع، وإلى جانب هذين العاملين أخذت أفكار «ما بعد الحداثة» الأمريكية تخترق إسرائيل، وتؤثر فيها بشكل قوي.

فقد كانت إسرائيل، قادرة على إعاقة تأثيرات أفكار «ما بعد الحداثة Post Modernism، فخلال سنوات ما قبل حرب حزيران عام 1967، استلزم الوضع تطبيق سياسية اجتماعية، واقتصادية أملتها ضرورات استيعاب المهاجرين الجدد. لكن هذه السياسة توقفت، بعد حرب حزيران 1967، وما أسفرت عنه مما جعل التأثير السياسي، والاجتماعي، والثقافي، لأفكار ما بعد الحرب العالمية الثانية الليبرالية الأمريكية، تتسلل إلى المجتمع الإسرائيلي بشكل كبير».

ويضيف شفايد: «من الجدير التأكيد في هذا السياق على أن الصهيونية كحركة ديمقراطية قومية، لم تتطور إلا على خشبة المسرح الخلفي للفلسفة الديمقراطية القومية الخاصة بأوروبا الغربية، وتحت وصاياها. بينما على النقيض من هذه الفلسفة، ليست العقيدة الديمقراطية الليبرالية الأمريكية قومية، بل هي معادية للقومية بشكل واسع وفردي إلى أقصى الحدود.

فهذه العقيدة في نموذجها الأساسي، تعتبر الدولة تخص مواطنيها على النقيض تمامًا من الدولة القومية، التي تعتبر القومية كيانًا، ووجودًا تاريخيين، بينما ترى الديمقراطية الليبرالية الأمريكية، الدولة مسؤولة عن استقرار ورفاهية مواطنيها كأفراد، وليس عن بقاء الأمة ككيان ذاتي.

و(شفايد) بتحليله هذا، حول تسلل أفكار الليبرالية الأمريكية إلى المجتمع الإسرائيلي بعد حرب حزيران، يتجاوز حقيقة، وواقع إسرائيل نفسها، وهي التي تتشابه في تكوينها المعاصر، كدولة أنشأها مستوطنون يهود قدموا من خلفيات إثنية، وطائفية، وقومية متعددة، للعيش في

وطن الغير وعلى حساب الغير، وعلى غرار المستوطنين الأوروبيين وغير الأوروبيين، الذين سكنوا في بعض دول أفريقية، وأسسوا بعد زمن دولًا عنصرية تعتمد نظام الأبارتايد (الفصل العنصري) انتهت، كروديسيا التي أصبحت زيمبابوي، وجنوب إفريقيا.

وهو لا يريد لإسرائيل أن تصبح «دولة مواطنيها»، بل يريدها استنادًا إلى الأيديولوجية الصهيونية أن تكون «دولة اليهود وحدهم» أو «دولة يهودية» كما تصورها هرتزل، دولة لا تسمح بالاستيطان فيها إلا لليهود، على خلاف الولايات المتحدة، التي تسمح لأفراد جميع الأمم، والشعوب بالاستيطان فيها، وحمل جنسيتها، دون حاجة للانصهار القومي فيها، لأنها بالأصل متعددة الأصول القومية، وهي تجمع من يهاجر إليها ويستوطن كصاحب جنسية أكثر من منحه صفة قومية.

ورغم صحة أن الصهيونية، نشأت في أوروبا، وديمقراطيتها الغربية القومية، وأرادت في مستهل القرن العشرين تقليدها، بعد تأثر المثقفين، ورجال الأعمال اليهود فيها، إلا أنها ليست في هذه الحالة، سوى تقليد اصطناعي يسعى إلى خلق مجتمع واحد لمجموعات إثنية، وطائفية وقومية منقسمة، وباسم دين تعتبر نفسها منتمية إليه، بطريقة تأسست فيها كما شرحنا سابقًا، اختلافات طائفية ودينية في كل مجموعة منها. بل إن المؤسسة الدينية اليهودية الرسمية لليهود الأرثوذوكس تنفي بموجب شرائعها وتقاليدها صفة اليهودي عن أكثر من خمسة ملايين يهودي ينتمون للمذهب الإصلاحي والمحافظ في العالم أي مايقرب

من 40٪ من يهود العالم وفي هذه الحال ما هي صلة هؤلاء بإسرائيل أو «القومية اليهودية» طالما أنهم ليسوا يهودا بنظر مؤسسي إسرائيل.

ولو أراد (شفايد) الاقتراب من الحقيقة، لأقر بأن أفكار «ما بعد الصهيونية»، و «ما بعد الحداثة» ليست سوى النتاج الطبيعي، والتتويج المنطقي للانقسامات، والتعددية الإثنية، والطائفية القائمة أصلًا في «المجتمع الاستيطاني الإسرائيلي»، وما يسمى بيهود «الشتات» والتي لم تختف، أو تتقلص نوعًا، وكمًا، رغم مرور أكثر من خمسين عامًا على تجميعها، مع بعضها البعض، فوق أرض واحدة، وفي ظل دولة يعتبرونها «دولتهم» بشكل من الأشكال.

لكن الانتماء الصهيوني الواضح عند (شفايد) وتمسكه باستمرار بالمشروع الصهيوني، هو الذي جعله يحمل هذا الموقف النقدي من تطور «المجتمع الاستيطاني الإسرائيلي»، وتأثره بأفكار ليبرالية «ما بعد الحداثة»، وتوليده لأفكار «ما بعد الصهيونية» التي تدعو إلى انتهاء المشروع الصهيوني عند حالة دولة إسرائيل القائمة على كامل أرض فلسطين الانتدابية، كدولة «ديمقراطية يهودية»، وليس «يهودية ديمقراطية»، كما يشرح ذلك (شفايد).

ويتابع شفايد تحليله قائلًا: «إن تبني الديمقراطية الليبرالية، وقبول أخلاقها الفردية، والتنافسية المرافقة لها، والشعور بأن دولة إسرائيل قد أخطأت بحق الفلسطينيين (ومن ضمنهم عرب عام 1948)، هو الذي تسبب بتفسخ المفهوم القومي الأساسي الذي تشكلت الديمقراطية الإسرائيلية منه بالأساس.

فبعد حرب حزيران 1967، أخذ المرء منا يسمع ادعاءات بالتناقض الأساسي، بين وجود إسرائيل «كدولة يهودية» ووجودها «كدولة ديمقراطية». فبناء على هذه المقولة، ينبغي على إسرائيل إن أرادت أن تكون ديمقراطية للجميع، الكف عن كونها دولة يهودية. وأن يعيش اليهود في إسرائيل، ويحملون جنسية إسرائيلية كأفراد لا علاقة لهم بمجموع القوانين الدستورية للدولة نفسها مسألة مرفوضة. فمثل هذا الافتراض يؤدي إلى تحويل إسرائيل في هذه الحالة إلى التحول إلى دولة لجميع مواطنيها بما في ذلك غير اليهود. لكن هذا الهدف يؤدي بشكل واضح إلى إلغاء الأساس الصهيوني لإسرائيل لأن إسرائيل حين تكف عن كونها يهودية، لا يمكنها في هذه الحالة ممارسة سياسات صهيونية في استيعاب المهاجرين اليهود كما لا يمكنها إعطاء التربية اليهودية، كنموذج وحيد للهوية الثقافية والقومية»..

ويتابع (شفايد): «هذه هي الأفكار التي يتميز بها لهذا الحد أو ذاك الطرح الأساسي لأيديولوجية «ما بعد الصهيونية»: التماثل مع المفاهيم الأساسية للديمقراطية الليبرالية الأمريكية، وفي المقدمة: تبني المفاهيم الاجتماعية لهذه الديمقراطية أي الأخلاق الاقتصادية للسوق الحرة، والتخلي عن قيم السياسة الاجتماعية الاشتراكية، التي استرشدت بها إسرائيل كبلاد لاستيعاب المهاجرين المستوطنين حتى حرب حزيران 1967، وخسارة الأهداف الاجتماعية الاندماجية في مجال الثقافة والجيش. وكل ذلك من أجل حمل أيديولوجية التنافس الحر غير المقيد التي ستجعل من أيديولوجية «ما بعد الصهيونية» بعد هذا كله نوعًا من السلوك الاجتماعي، والسياسة الاقتصادية الاجتماعية.

وفي هذا السياق أؤكد أن عددًا قليلًا من الإسرائيليين فقط يعتبرون هذه الأفكار متخلية عن الصهيونية، بل على النقيض تمامًا، فمعظمهم يفترض أن المكسب الاقتصادي للفرد سوف يتطابق مع التقدم في الاستقرار القومي، ومع استيعاب المهاجرين، والاندماج في المدارس، وإن هذا يمثل تجسيدًا للإنجاز الصهيوني». ويتساءل شفايد:

هل هذا كله حقًا هو كل ما ينبغي أن يطمح له الإسرائيلي؟ أو هل أنجزت إسرائيل أهدافها؟[1]

* الطموح الإسرائيلي

يقول (شفايد): «إن التحدي الذي يفرضه النوع الأول من أتباع الصهيونية، الذي يتحاشى معاداة الصهيونية، يستوجب الاهتمام به بجدية كبيرة. فالسؤال المطروح الآن هو: هل أنجزت دولة إسرائيل فعلًا أهدافها أو أن أمامها هدفًا رئيسًا وأساسيًا يتعين عليها إنجازه؟ هناك من يعتقد أن الصهيونية اقتربت كثيرًا من إنجاز هدف واحد على الأقل من أهدافها الرئيسة، وبرأيي أن هذا القول له ما يبرره. فلو عرفنا الصهيونية، بالاستناد إلى العقيدة السياسية (لهرتزل) لوجدنا أن إسرائيل حسب هذا التعريف لم تنجز هدفها السياسي عندما تأسست عام 1948 وإنما أنجزته، أو كادت تنجزه في يومنا هذا. فإسرائيل أصبحت أكبر مركز تجمع يهودي في العالم، وفي فترة عشرين عامًا ستتحول بالتأكيد

(1) أهداف الصهيونية بعد قرن على مؤتمرها الأول دراسة بالانكليزية - اليعازار شفايد البروفيسور الحائز على جائزة إسرائيل بالعبرية 1998 (mfa.gov.org.il)- The Gaols of Zionism Today

إلى وطن لأغلبية اليهود في العالم. « ويحدد شفايد على طريقته وبلغته العوامل التي سيتحقق بفضلها هذا الهدف:

1 إن إسرائيل ستجلب جميع الذين يرغبون بالهجرة من بلدان الاتحاد السوفياتي (سابقًا)، كما يمكن لها استيعاب يهود آخرين من أماكن أخرى، يشعر اليهود فيها بصعوبات العيش.

2 إن إسرائيل صحية من الناحية الديموغرافية، فبسبب تشجيعها لسياسة التكاثر الطبيعي، يعتبر معدل الأعمار فيها متناسبًا جدًا، فعندها أغلبية من الشبان وأقلية من الكبار بالسن. ورغم أن السكان اليهود لا يمكنهم مجاراة السكان الفلسطينيين بمعدلات التكاثر، إلا أنهم يتبعون سياسة التكاثر الطبيعي.

لكن (شفايد) ينسى أن أعلى نسبة تكاثر بين اليهود في إسرائيل هي بين المتدينين المتزمتين (الحاراديم) منهم، وهؤلاء في النهاية من المعادين للأيديولوجية الصهيونية، والداعين إلى تحقيق «مملكة السماء على الأرض بفضل الرب وحده»، وليس بأيدي البشر، وارتباطهم بأرض «إسرائيل الراهنة» مجرد محطة مؤقتة لانتظار «المسيح»، والخلاص الأبدي و «مملكة الرب النهائية». أما اليهود العلمانيون الليبراليون، فلا يهتمون بإنجاب أكثر من طفل أو اثنين. ويتابع (شفايد):

«3 إن العملية السلمية ستؤدي إلى تشكيل علاقات طبيعية مع بلدان المنطقة، وإذا نجحت، وتحقق هذا الهدف، فسيجد الشعب اليهودي الذي يقيم في صهيون نفسه يعيش في بيئة سياسية مناسبة.

وعلى قاعدة الواقع، الذي تخلقه هذه العوامل، وأخرى غيرها، يمكن للمرء أن يقول بأن تصور هرتزل السياسي قد أصبح حقيقة. وهذا ينسحب أيضًا على وضع يهود الشتات في العالم الحر، لأن هرتزل كان يعتقد أن اليهود الذين ينتقلون إلى الدولة اليهودية سوف يعيشون ضمن شروط، وظروف مشابهة للشروط التي يعيشون فيها الآن في بلدان سكنهم.. ولا ننسى أنه عندما تأسست إسرائيل لم يكن حتى يهود أمريكا أنفسهم يشعرون بأمن، وكأنما هم في وطنهم.. وانطلاقًا من هذا التصور، وعلى فرضية تبنينا له، فإن الرؤية الصهيونية تكون في هذه الحالة قد تحققت من الناحية السياسية».

إلا أن هذه الشروط المتوفرة في إسرائيل، وعند يهود العالم في أوطانهم التي يعيشون فيها، ستؤثر بشكل سلبي إن بقيت على هذا النحو على استمرار المشروع الصهيوني، وأهدافه الكاملة.

فالحياة الراغدة، والحرة لليهودي خارج إسرائيل، لن تحفزه على الهجرة إليها متدينًا كان، أو علمانيًا، إصلاحيًا، أو أورثوذكسيًا استنادًا إلى ما سبق، وذكرناه حول يهود العالم ويهود إسرائيل بل إن شفايد يرى أنه سيصبح من مصلحتهم الملموسة الميل نحو أفكار «ما بعد الصهيونية»، وهي التي يحذر من خطرها على المشروع الصهيوني نفسه. ولعل هذا ما يتحسسه (شفايد) حين يتابع قائلًا:

«وهنا تكمن مسألة مثيرة للتهكم، فكلما نجح اليهود في الحصول على التطبيع السياسي، كلما واجهوا بالمقابل خطرًا مختلفًا كليًا، وهو

ذلك الخطر الكامن في جذور المشروع الصهيوني، والذي يمكن أن يشكل عملًا حاسمًا لاستنهاض الحركة الصهيونية».

لكن ما هو هذا الخطر، وما هو العامل الحاسم في إيقاظ واستنهاض الحركة الصهيونية، الذي يتجنب (شفايد) الإشارة إليه بوضوح؟

من المعروف أن الحركة الصهيونية، استغلت في دعوتها، وتجنيدها لليهود شعورهم بالاضطهاد في الأوطان التي كانوا جزء من شعوبها، واستندت إلى هذا العامل في تسخيرهم للحل البديل «الوطن القومي في فلسطين».

وقد اعترف (شفايد) نفسه بأن الصهيونية لم تجد آذانًا صاغية، بين اليهود لدعوتها، إلا بعد وقوع «الكارثة» التي أصابت اليهود في الحرب العالمية الثانية، في أوروبا والمسألة المثيرة للسخرية، التي لا ينكرها (شفايد) هي أن اليهودي الذي يتمتع في وطنه في دول أوروبا أو غيرها بحرية وحياة ثرية لن يتحمس كثيرًا للهجرة إلى إسرائيل. وهذا تمامًا ما دلت عليه وقائع الحياة المعاصرة، فنسبة اليهود المهاجرين من الولايات المتحدة، هي أدنى نسبة، بل لا تكاد تذكر، وكذلك الأمر من يهود بريطانيا وكندا، وفرنسا.

وهكذا أصبح الآن عدد اليهود القادمين من دول روسيا الاتحادية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي والتحول إلى الاقتصاد الحر، ما يقرب من مليون مهاجر منها تمكنت إسرائيل من تهجيرهم إليها بمساعدة وضغوط الولايات المتحدة والدول الأوروبية على اليهود الروس

أنفسهم. ومما لا شك فيه، أن (شفايد) تنبه جيدا لهذه المسألة، ولذلك يتابع قائلًا: «وحول هذه النقطة لا بد من التدقيق في المفاهيم الأخرى للصهيونية وبخاصة مفهوم الصهيونية، الروحية للمفكر الصهيوني «أحاد هاعام».[1]

هنا نرى شفايد يسعى الى انتقاء مبررات أخرى، ومسوغات مستمرة للحفاظ على الصهيونية، وباختفاء مبرر «شعور اليهود بالاضطهاد والتمييز» الذي وظفته الصهيونية، تصبح الدعوة باسم «الصهيونية الروحية» المبرر المقبول لاستمرار ارتباط اليهود بالصهيونية، وتجنيدهم لخدمة كامل أهداف المشروع الصهيوني، التي لم تتحقق بعد.

* الصهيونية الروحية

يحلل (شفايد) المفهوم الجديد «للصهيونية الروحية» بالعودة إلى بداية ظهور هذا المفهوم فيقول:

في أوائل القرن العشرين شخص «أحاد هاعام» مسألتين كبيرتين للشعب اليهودي، أطلق على الأولى اسم «مشكلة اليهود»، وعلى الأخرى اسم «المشكلة اليهودية». فمشكلة اليهود، تتعلق بالمحنة التي كانوا يتعرضون لها، بسبب «معاداة السامية»، وهذه المحنة لم تكن مجرد إهانات، وسوء معاملة عانوا منها في وسط، وغرب أوروبا، وإنما كانت مذابح، ومعاداة اقتصادية «للسامية» في أوروبا الشرقية، حيث شكل العداء المرعب هناك قوة الدفع الرئيسة، في تحريك أعداد وافرة من

(1) أحاد هاعام بالانكليزية jewishvertuallibrary

اليهود على الهجرة إلى إسرائيل. كما أن الحظر الاقتصادي، أجبرهم على العمل كعمال لأنهم منعوا من امتلاك أي مصدر للعيش، في البلدان التي كانوا يسكنون فيها، الأمر الذي جعلهم في حالة تامة، من الفقر المدقع.

وكانت سياسة الحكومة الروسية (القيصرية) في أواسط ونهاية القرن التاسع عشر تهدف إلى تخليص البلاد من اليهود، الأمر الذي حرك موجات كثيفة من الهجرة إلى أمريكا بشكل خاص.. واستندت الحركة الصهيونية على هذا الاندفاع الخارجي لليهود. واعتقد «أحاد هاعام»، في ذلك الوقت، أن أرض إسرائيل لن تستطيع توفير حل اقتصادي، للصعوبات التي يعاني منها اليهود. ولذلك شجع هجرتهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، باعتبارها الحل الوحيد المتوفر. «ويتابع شفايد:

«ومهما كانت النتيجة، اعتبر (أحاد هاعام) مهمة الصهيونية هي مواجهة «المشكلة اليهودية» وليس الاهتمام «بمشكلة اليهود»، و «المشكلة اليهودية» تعني تزايد عدد اليهود الذين انصهروا وتلاشت يهوديتهم في المجتمع الأوروبي. فقد تولد هذا الانصهار عن قوة الانجذاب المظهري للثقافة الحديثة الجديدة، التي رغب اليهود بالامتزاج فيها. وبعبارة أخرى، كانت رغبة اليهود بالانصهار ناجمة عن إيجابية العالم الحديث اتجاههم، وافترض (أحاد هاعام) أنه إذا رغب اليهود بالاستمرار بوجودهم كشعب مميز بثقافته، فسوف يتعين عليهم صياغة ثقافة جديدة، تحافظ على استمرارية هويتها، وتوالفها مع أصولها، وهذا سيشكل استجابة، لكل ما هو إيجابي في الثقافة الحديثة، وتعزيز إنجازاتها العلمية، والتقنية، والإنسانية بشكل عام».

ويتابع (شفايد): «هذا على أية حال ما جعل من وجود الدولة على أرض إسرائيل ضرورة، لأن ثقافة كهذه، لا يمكن خلقها في الشتات. فكل شعب بحاجة إلى وطن وإطار مستقل ذاتي، يتمكن فيه من تطوير ثقافة كاملة ناضجة، ومستقلة بذاتها، لتلبية متطلبات الحياة. ومن هذه النواة طور (أحاد هاعام) عقيدته الصهيونية، التي أيدت تأسيس «مركز روحي «للشعب اليهودي في أرض إسرائيل»

لكن شفايد يسأل: هل كان تأسيس، وتقوية دولة إسرائيل قد حقق فكرة (أحاد هاعام)؟ وهل تشكلت حقًا هذه الهوية الثقافية الجديدة؟ وهل توقف ذوبان اليهود وانصهارهم في البلدان التي يعيشون فيها؟ يعترف شفايد قائلا: «يبدو من الواضح تمامًا، إن الإجابة على هذه الأسئلة هي النفي.. فعملية ذوبان اليهود وضياع الهوية اليهودية، كما ذكرنا سابقًا واضحة لنا جميعا لكنني أعتقد على أية حال أن الذوبان يجري في إسرائيل أيضًا وبكثافة هائلة وبالتالي لا يكفي لليهود أن يعيشوا في دولتهم المستقلة ذات السيادة، ويشكلون حياتهم الخاصة فيها لكي يقيموا بهذا الشكل حاجزًا أمنيًا أمام الذوبان. فالدولة تعطي الإطار، والأدوات، والإمكانية، لكن على المرء القيام بالعمل والاشتراك في محاولة إبداعية، وقبل كل شيء أن يكون لديه الإرادة لخلق الهوية الثقافية الجديدة».

وكأن (شفايد) يؤكد هنا، أو يشير بشكل ما، إلى عدم وجود هوية ثقافية موحدة لليهود، حتى بعد مرور خمسين عامًا على وجود «دولة إسرائيل»، واستيعاب نسبة من اليهود فيها...

* الثقافة اليهودية

ما هي «الثقافة اليهودية» التي يراد لها الاستجابة لثقافة العالم الحديثة؟ وهل يمكنها التوافق معها بشكل عام؟ أم أن الصهيونيين، يسعون إلى خلق هوية «صهيونية»، بشكل من الأشكال؟

إذا اعتبرنا «التوراة والتلمود»، الكتابين اللذين يحملهما اليهود، ويغترفون منهما ثقافتهم، فأية ثقافة في هذه الحالة ستتشكل منهما أو بالاستناد إليهما؟ أليس قصصًا خطها الحاخامون بأقلامهم فتحولت إلى أساطير قديمة، لا تصمد أمام ما يدعو له الله رب الجميع من عدالة ومحبة ومساواة بين البشر مثلما لا تصمد أمام مكتشفات التاريخ القديم وآثاره ووثائقه الملموسة. فالوصايا، والدعاوى، التي تظهر في التلمود، وجميعها عنصرية، تحقد على جميع أمم الأرض «الغوييم «دونما أسباب مبررة، أو موجبة، وتتطلع إلى «مسيح» منتظر أعده الحاخامون بحسب أهوائهم، وحددوا مهمته بسحق هذه الأمم (الغوييم) الأغيار وتدميرهم، لإعادة إحياء بني إسرائيل، وحدهم، وتوريثهم الأرض.. أليست هي الثقافة التي تحدد «الفرق بين روح اليهودي، وروح غير اليهودي أكبر من الفرق بين روح الإنسان وروح الحيوان». كما يقول التلمود، و «ثقافة أن الخير يكمن في قتل الغوييم»؟!.

ثقافة من «صرع الرب» وجثم فوق صدره مطالبًا بمكافأة كبيرة؟ كما تقول التوراة في سفر التكوين؟ لا شك أن هذه الثقافة يتميز بها المتدينون اليهود المتزمتون، وهي التي تجعلهم أصحاب هوية يهودية،

لكن هؤلاء كما أشرنا سابقًا لا يعترفون بدولة إسرائيل الصهيونية، كدولة تمثل الرب، والتوراة، والتلمود، وبالتالي لا تمثل الهوية الثقافية اليهودية.

و لذلك لم يعد أمام أصحاب الأيديولوجية الصهيونية في هذه الحالة، سوى خلق ثقافة انتقائية مركبة، تختار من التراث اليهودي ما يتناسب وطروحاتها، وأهدافها، وتضيف إليها من الثقافات الأخرى الفاشية ما يخدم هذه الطروحات، ويعزز الوصول إلى الأهداف، وهذا ما يطابق تمامًا المجتمعات الاستيطانية الاستعمارية في القرون السابقة، ولا يتطابق أبدًا مع واقع الشعوب الطبيعية وتطورها التاريخي المشترك..

وفي ظل ما يحمله المجتمع الإسرائيلي، من بذور التناقض الإثني، والطائفي، والقومي، تصبح مهمة خلق الثقافة الجديدة وجعل إسرائيل «مركز روحي» يرتبط به اليهود، كل على طريقته، وأينما كان من أهم المهام التي تضعها الحركة الصهيونية وإسرائيل نصب أعينهما في القرن القادم كمعبر ضروري، وقاعدة أساسية لتجميع اليهود وربطهم، للمحافظة على استمرار المشروع الصهيوني، والسعي المتواصل لتحقيق بقية أهدافه.

وهذا ما يلاحظه (شفايد) حين يقول: «وبالطبع ربما يختلف المرء حول منطقية القول، بذوبان اليهود في إسرائيل. فالذوبان في شكله التقليدي، هو عملية تمارسها الأقلية التي تعيش وسط أكثرية، غنية واسعة. وفي هذه الحالة يبتلع مجتمع الأكثرية الأقلية، مما يشوش عن دراية، وطواعية المظاهر التي تميزها عن الأكثرية، وهذا ما يجعلها تختفي. ويبدو أن اليهود في إسرائيل، يشعرون أنهم طالما يعيشون

في دولتهم الخاصة بهم، ويتحدثون بلغتها فلا يمكن أن يذوبوا. لكن الثقافة الخاصة بمفهوم «ما بعد الصهيونية» تثبت إمكانية ذوبانهم.» ويسلط شفايد في دراسته حول أهداف الصهيونية في القرن المقبل مظاهر فشل الثقافة الصهيونية حتى في إسرائيل نفسها حين يقول: إن حقيقة نزوح الشبان الإسرائيليين من إسرائيل، وطريقة توافقهم داخل الثقافة الأمريكية، يشير تمامًا إلى هذه العملية الجارية للذوبان. فالنازحون الإسرائيليون لا يحافظون، إلا على جزء محدود من الهوية الثقافية اليهودية، وتراهم يشعرون كأنهم يعيشون في وطنهم، حين ينضوون في البيئة الثقافية الأمريكية. ونجدهم يتمثلون بهذه الثقافة الأميركية تمامًا، وهذا يعني أن جذورهم اليهودية، تكون ضعيفة حتى وهم في إسرائيل. كما أنهم يفتقرون للالتزام القوي بالتاريخ اليهودي، والمصادر اليهودية، والطريقة اليهودية في العيش.

وحتى في إسرائيل نفسها، تولدت لهم ثقافة معاصرة، حصلوا عليها من وسائل الإعلام القادمة من الثقافة الأمريكية. وكل من يرغب بهذه الثقافة، بوسعه التجول في وقت فراغه، عبر مناظر الثقافة الأجنبية في إسرائيل، وحينها سيعثر على حالة الذوبان في سلسلة كاملة من القيم، والرموز السياسية، والأخلاقية، والاجتماعية، والإبداعية، والروحية، وحتى اللغوية أيضًا».[1]

(1) أهداف الصهيونية بعد قرن على مؤتمرها الأول دراسة بالانكليزية - اليعازار شفايد البروفيسور الحائز على جائزة إسرائيل بالعبرية 1998 (mfa.gov.org.il)-The Gaols of Zionism Today

هذه هي حال ما يسمى بالثقافة اليهودية، والهوية الثقافية اليهودية، كما يتحدث عنها البروفيسور (أليعازار شفايد) بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس الحركة الصهيونية ورؤيته لأهدافها في القرن المقبل.. ألا يشكل ذلك ما يعتبر اعترافًا بفشل المزاعم الصهيونية، ومشروعها الاستيطاني الاستعماري الحديث؟

* اليهودية مجرد ثكنة عسكرية

فظاهرة «ذوبان اليهود في ثقافات غير يهودية في إسرائيل نفسها»، كما يقول «شفايد» تهدد هذا المجتمع، وتساهم في تقويض «هويته الثقافية اليهودية». فبعد خمسين سنة من وجود هذا الشتات المتعدد في أرض واحدة، لم تنجح الصهيونية، إلا في تشكيل ما لا يعدو عن كونه «ثكنة عسكرية» خاصة مرتبطة بمركز كبير قوي قادر على تزويدها بأسباب الحياة والقيام بالوظيفة المطلوبة له ولها، وكأنه أنبوب أو شريان إذا انقطع عنها انتهى وجودها وما يسمى بثقافتها.وهذا الكيان لا يجمع كما نقرأ ما بين سطور فيلسوف الصهيونية إلا مجموعات مختلفة في تنوعها القومي والتاريخ والطائفي وجدت لأسباب ظرفية مصالح خاصة لها كلما تآكلت أو انتفت أو تعرض تحقيقها للخطر غادر أصحابها ما يسمى بالوطن الصهيوني عائدين الى أوطانهم السابقة. فقد جرت في العقود الثلاثة الماضية حركة نزوح للإسرائيليين بلغ عددهم أكثر من مليون فرد بموجب الاحصاءات الإسرائيلية ويعيش منهم 350 ألفا في الولايات المتحدة وحدها. وإذا كانت الحركة الصهيونية قد أرادت لهم التحول إلى شعب تصنع وجوده وثقافته فوق أرض

فلسطين فإن مشروعها محتم عليه التآكل والتفكك لأسباب داخلية وخارجية سياسية وغير سياسية يتصدرها حالة الرفض الطبيعية لهذا المشروع الصهيوني من قبل أصحاب الوطن الفلسطيني والشعوب العربية المحيطة بإسرائيل. وهذا ما تشير إليه ملاحظات شفايد بأن نسبة مهمة من الشباب الإسرائيلي لا يعتبرون بقاءهم في هذه الثكنة، يساوي تعريض حياتهم للخطر. فما جرى صنعه بالترابط مع ظروف معينة شكلت عوامل حاسمة في وجوده، لا يمكن استمراره على حاله في ظروف أخرى مختلفة.

وهذا ما أشار إليه (شفايد) حين قال في دراسته حول أهداف الصهيونية اليوم: «إن اليهودي في العالم لم يعد يخشى من الاضطهاد بسبب يهوديته، والحفاظ على هويته اليهودية لم يعد يعني له شيئًا، وذوبانه في قلب المجتمع الليبرالي الأمريكي، أو الغرب لا يشكل له سلبية، أو سلوكا مكروهًا.»

ومع ذلك لا يستطيع شفايد أن ينكر أن اليهودي في إسرائيل، ما زال يتعرض للخطر، لأنه مغتصب الأرض، وحق الآخرين وتمسكهم بهذا الحق واستعادته، ولم تعد إسرائيل المكان الذي لا يستطيع اليهودي إلا العيش فيه أو إجباره على الهجرة إليه مثلما جرى في نهاية الحرب العالمية الثانية، فالعالم رحب، والليبرالية الحديثة ترحب به في كل وقت يريد، متدينًا كان، أم علمانيًا، لأن الأول ترتبط «عودته الحقيقية» الكاملة بانتظار «مسيح الرب القادم من صلب اليهود»، فهو دومًا، وحيثما كان على انتظار، والثاني رغم أنه صهيوني، إلا أنه في النهاية،

يريد ممارسة حياته الليبرالية، فإن ضاقت عليه في إسرائيل، وأصبحت مشروعًا، غير مربح بالنسبة له، فالعالم واسع، ويتسع له، بينما إذا استمر بالعيش في إسرائيل فالخطر سيداهمه، ممن سلب لهم حقوقهم..

ألم يعترف (شفايد) بصدمة «حرب تشرين» وأثرها النفسي القاسي على الشبان الإسرائيليين؟ وتأكيده بأنهم لا يريدون إلا الحفاظ على وجود «دولة إسرائيل بحدودها الراهنة» وإمكانية سلام، وتطبيع في ظل حياة ليبرالية وثقافة مركبة.

ألا يعتبر هذا مؤشرًا على أن المشروع الصهيوني في مأزق مع نفسه؟ وفي مأزق مع استمرار أهدافه التي لم تتحقق بعد؟ وفي مأزق مع أتباعه اليهود؟ وفي مأزق مع الواقع المحيط؟

لكن (شفايد) يعود، ويتحدث، بلهجة المتفائل على طريقة من يأمل أن تكون الصورة ليست على هذا النحو السلبي الخطير حين يقول: «ومرة أخرى، أعتقد أن معظم اليهود الإسرائيليين، ما زالوا تقليديين أو قوميين في اتجاههم، وإن معظمهم، أصحاب جذور ثابتة في تراث شعبهم، ولا يرغبون بالانفصال عنه، وأن معظمهم ما زالوا يثمنون الحياة القومية، والهوية القومية، والقيم القومية، والثقافة القومية. لكن على الرغم من ذلك أصبح لديناميكيات الذوبان تأثير قوي، فهي تؤثر أولًا في «الشارع» ثم تندفع إلى الداخل. ولأن هذه العملية ذات تأثير جوهري على حياة العائلة، والمدرسة فمن الممكن لها أن تلحق الضرر بالمحيط، الذي يتعلم، ويتثقف فيه الناس، والمحيط الذي يجري فيه الحفاظ على الثقافة القومية، والتقليدية وتطويرها».

لكن المشروع الصهيوني رغم كل مآزقه هذه، لم يتحول بعد إلى مأزق في علاقته الاستراتيجية، والخدماتية مع القوى الإمبريالية، وخصوصًا الولايات المتحدة الأمريكية، فهي ليس من مصلحتها تسلل الضعف الداخلي إلى قاعدتها في إسرائيل، وليس من مصلحتها أيضًا، ما يفتت هذه التركيبة العجيبة «للمجتمع الإسرائيلي»، أو يدخلها في متاهات المآزق البنيوية الذاتية. فالولايات المتحدة تدرك جيدًا الدور الذي تمثله إسرائيل في المنطقة من منطلق مصالحها الاستراتيجية فيها. وهذا ما جعلها طوال عقود كثيرة تغدق المساعدات المالية الوافرة عليها، والتي لولاها لما استمرت إسرائيل على هذه الحالة الاقتصادية، أو السياسية الراهنة. ومع ذلك ماذا يمكن أن تفعل الولايات المتحدة، إذا ما استمر المشروع الصهيوني في فرز بذور ضعفه، ومأزق مبرراته داخل أتباعه أنفسهم؟

* قانون عودة اليهود

يختتم (شفايد) دراسته، محددًا الهدف الرئيس للصهيونية في الوقت الراهن، ببناء «المركز الروحي اليهودي» علمًا أن الهدف الأول، الذي رسمه للحركة الصهيونية كما ذكرنا سابقًا هو تحويل إسرائيل خلال السنوات العشرين القادمة، إلى أكبر تجمع لليهود في العالم من خلال استيعاب المهاجرين اليهود من أوطانهم في الاتحاد السوفياتي السابق، وخصوصًا (روسيا الاتحادية) التي ما زال مليون يهودي، يقيمون فيها بصفتها وطنهم حتى الآن.

ويشرح (شفايد) هذا الهدف، وطريقة الوصول إليه قائلًا: «إذا أصبحت حساباتنا على هذا الشكل، فالنتيجة البسيطة هي: أن الهدف الرئيس للصهيونية اليوم بوجود دولة يهودية كحقيقة لا تقبل الجدل، هو «بناء المركز الروحي» الذي أعتبره مشروعًا دستوريًا ثقافيًا إبداعيًا. أولًا، وفي المقدمة ينبغي علينا النضال من أجل «يهودية دولة إسرائيل»، و «هويتها اليهودية» فهذا النضال هو المحور الحاسم في حملتنا اليوم، لأن المسألة، تتعلق بما إذا كانت إسرائيل، ستستمر كدولة يهودية، وديمقراطية، كما حددتها وثيقة الاستقلال المتطابقة مع تحديد إسرائيل كدولة لكامل الشعب اليهودي.

إن هذا التحديد قد أصبح أساسًا من خلال تشريع «قانون عودة اليهود»، وأهمية هذا القانون تكمن في اعتباره جميع اليهود في العالم مواطنين مقبلين لإسرائيل، وبصفتهم «العائدين إلى الوطن». ويتابع شفايد:

«وبمجرد وصول مثل هؤلاء اليهود إلى إسرائيل، سيتمتعون فورًا، بامتيازاتهم التي حفظت لهم، كمواطنين في بلادهم الخاصة بهم (أي إسرائيل). وبالإضافة إلى «قانون العودة»، هناك ميثاق، قد جرى عقده بين إسرائيل، والمنظمة الصهيونية العالمية، والوكالة اليهودية باعتبارهما الممثل المعترف به قانونيًا في حماية مصالح يهود العالم في إسرائيل. وهذا الميثاق يقول:

إن دولة إسرائيل، تعتبر نفسها تأسست على يد كامل الشعب اليهودي، وأبوابها مفتوحة، استنادًا إلى قوانينها، لكل يهودي يرغب بالهجرة إليها، وإن تجميع اليهود من المنافي، بصفته مهمة مركزية من

مهام دولة إسرائيل، والحركة الصهيونية في ظرفنا الراهن، يستلزم القيام بجهود دائمة من قبل الشعب اليهودي في الشتات. ولذلك تتوقع دولة إسرائيل، من جميع اليهود بشكل فردي، وجماعي، المشاركة في بناء الدولة، وتسهيل هجرة جماهير اليهود إليها، ونعتقد أنه من الضروري توحيد جميع المجموعات اليهودية على هذا الهدف».

ويتابع (شفايد): «إن هذا القانون، الذي يعطي المنظمة الصهيونية العالمية مركزها في إسرائيل، يجعل دولة إسرائيل صهيونية أي دولة جميع يهود العالم. وهذا المفهوم واضح تمامًا في باب قانون «يد واسم» بالعبرية (ياد فا شيم) الخاصة بتوثيق الضحايا اليهود في الحرب العالمية الثانية فبحسب هذا القانون، يعتبر دور منظمة «يد واسم» هو إعطاء الهوية «الوطنية» لكل من تعرض للتعذيب من اليهود، أثناء الحرب العالمية الثانية.

وبعبارة أخرى، تعتبر إسرائيل نفسها دولة لجميع «الضحايا اليهود» في الحرب العالمية الثانية، بصفتهم مواطنيها. واستنادًا إلى هذا القانون، تلعب دولة إسرائيل الدور الرمزي في إعادة الاعتبار للتاريخ اليهودي والذاكرة التاريخية، وهذا ما يعبر بعمق عن الالتصاق، والانتماء للتراث اليهودي. وضمن أسس هذه القوانين تلتزم إسرائيل بمسؤوليتها على جميع اليهود، استنادًا إلى كونها المكان الذي يمثل الهوية الجماعية اليهودية، ومن خلال علاقتها المستمرة، بأصول الشعب اليهودي. ويشير بيان الاستقلال إلى نبوءة الأنبياء عن إسرائيل

كمصدر، وأساس للمفاهيم الاجتماعية الأساسية، وللمظاهر القومية والديمقراطية المحددة.

فديمقراطية إسرائيل لا تعود لفكرة ذات منشأ خارجي، وإنما تعود لارتباطها بمبادئ العدالة، ورؤى السلام التي جاء بها أنبياؤها، أي الارتباط بالمصادر اليهودية، والولاء لرؤيا أنبيائها. وهذا ما يضعنا أمام مهمة صهيونية كبيرة، هي ضمان بقاء إسرائيل كدولة يهودية، حسب ما ذكرنا سابقًا، وإنجازها لهذه المهمة بشكل متطابق مع ثقافتها، وما تعلمه مدارسها الحكومية، وبقية المؤسسات التربوية اليهودية. والسؤال الأخير الذي يطرح نفسه الآن هو: كيف ينبغي على إسرائيل أن تقيم علاقات متبادلة مع يهود الشتات؟

فالعلاقات التي كانت سائدة، كانت تجري بين ممثلين سياسيين من جانب، وممثلين من الجانب الآخر، مستثنية نخبة المفكرين والمثقفين والشباب العاديين، وبجملة معترضة ينبغي على المرء أن يدرك جيدًا، أن الغالبية الساحقة من يهود الولايات المتحدة، لم تزر إسرائيل. فكل سنة، لا يأتي منهم سوى مجموعة قليلة العدد، كما أن قادة يهود الولايات المتحدة الأمريكية، لا يأتون إلى إسرائيل إلا كل سنة مرة واحدة، وبشكل رسمي ضمن مهامهم. فالغالبية الساحقة من اليهود الأمريكيين، ليسوا سوى غرباء تمامًا عن إسرائيل. لكنهم لا يتجنبون زيارة بلدان أخرى، فهم يسافرون إلى معظم أنحاء المعمورة كثيرًا باستثناء إسرائيل.

بناءً على ذلك، من المهم جدًا، تأسيس بنية تحتية إسرائيلية، تقوم بإعطاء ثقافة مكثفة وبنشاطات ثقافية للالتقاء بالمثقفين اليهود،

ومجموعات الشباب اليهود، وبالرسميين اليهود، الذين يزورون إسرائيل للاطلاع على ما تمثله الثقافة اليهودية، والهوية اليهودية في إسرائيل، وخصوصًا الرصيد الروحي، والقيم الموجودة في إسرائيل».

ويشدد (شفايد) أيضًا على تعليم العبرية، في دورات خاصة لليهود في أنحاء العالم لكي يتحقق الاقتراب من الثقافة اليهودية، ويدعو إلى استضافة الأطفال اليهود في إسرائيل، لتحقيق هذا الغرض.

ويعتبر أن إحدى التحديات التي تواجهها الصهيونية الآن، هي مسألة إعادة تأسيس وإبداع اللغة الثقافية المشتركة بين اليهود، والعالم.

ويتابع (شفايد): «ومنذ تأسيس دولة إسرائيل، لم تتواصل الحركة الصهيونية إلا مع يهود الشتات، دون الانتباه إلى يهود إسرائيل، مما جعلها تكف عن كونها إسرائيلية.. والسبب في ذلك بيروقراطي تمامًا. وبالإضافة إلى ذلك، فنحن لا ننتخب زعماء ومندوبي الحركة الصهيونية، بل نعينهم بالاستناد إلى ميكانيزم انتخابات الكنيست، وحصص أحزابها وحركاتها. والحركة الصهيونية التي تعنى بالأنشطة الثقافية، والتعليمية، وتجمع التبرعات من أجل تحقيق أهدافها لا وجود لها في إسرائيل. وقد حان الوقت ليهود إسرائيل إدراك الحقيقة أنهم الآن ما عادوا فقراء، بل أغنى تقريبًا من يهود الشتات، وعليهم المساهمة بالمساعي التعليمية، والثقافية التي تقوم بها الحركة الصهيونية، عبر التبرع لها في إسرائيل نفسها أيضًا، وليس في ساحة يهود الشتات فقط».

ويختتم (شفايد) عرضه هذا: «ويبدو لي أن الرسالة المركزية في هذه السنة المكرسة للصهيونية، بمناسبة مرور مئة عام على تأسيسها هي أن المهمة الصهيونية الآن هي: تأسيس المركز الروحي بمكوناته الثقافية، ومعداته، وأدواته التعليمية، والثقافية، والتربوية».

الواضح أن (شفايد) يدعو هنا، إلى محاولة إنقاذ يهود العالم من ضياع «الهوية اليهودية»، و «الثقافة اليهودية» لكن هل يجري حقًا هذا الضياع للهوية اليهودية، عند يهود العالم لكي يطلب شفايد، تضافر جهود إسرائيل، والحركة الصهيونية العالمية للقيام بهذه المهمة؟.

تقول الكاتبة الإسرائيلية شولاميت ميتشيل التي غطت مؤتمر «تمتين الحياة اليهودية في أوروبا» المنعقد في 13 تموز 1997 في ستراسبورغ في فرنسا بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس الصهيونية (نشرة jewish telegraf agency الاليكترونية 13-7-1997) أن أحد المشاركين اليهود جاء في مداخلته:

«لأول مرة منذ دمار الهيكل الثاني تواجه الطوائف اليهودية في أوروبا مسألة «البقاء كيهود» دون أن ترغمها العوامل الخارجية على هذا التوجه.. فالنسبة المرتفعة للزواج المختلط ومعدلات الولادة المنخفضة جدًا جعلت الكثير من الكتب تتوقع قريبًا اختفاء يهود الشتات ودعت العديد من المؤتمرات إلى منع نتيجة كهذه. «وتضيف ميتشيل:» قبل سنتين عقد في براغ اجتماع واسع نوقشت خلاله مشكلة تخلي اليهود عن يهوديتهم. وفي مستهل تموز 1997 عقد في ستراسبورغ في فرنسا المؤتمر الثاني الذي بادر إلى عقده «معهد السياسة اليهودية»

في لندن تحت شعار «تمتين الحياة اليهودية في أوروبا «لكن المشاكل الأساسية لهذه الظاهرة لم تتغير في السنتين الماضيتين رغم وقوع ثلاثة تطورات مهمة هي:

1 زيادة الصلة المباشرة بين الطوائف، والمنظمات اليهودية في مختلف البلدان سواء عبر لقاءات أو عبر قناة «الإنترنت «الدولية».

2 مطالبة طوائف يهود أوروبا الشرقية بالاستقلال عن الوصايا الغربية اليهودية.

3 اشتداد الانقسام بين اليهود المتدينين (الحاراديم) واليهود العلمانيين.

ومقابل هذا لوحظ في ستراسبورغ وجود تذمر من جميع الطوائف اليهودية الأوروبية، نحو الموقف المسيطر والقيادي ليهود الولايات المتحدة ويهود إسرائيل على حساب الكيان اليهودي الأوروبي، الذي تبلور مؤخرًا.

وتنتقل ميتشيل إلى موضوع ذوبان اليهود، فتشير إلى أن الدراسات التي ظهرت في المؤتمر أشارت إلى «تشابه معدل الزواج المختلط بين يهود بلدان أوروبا (أي الزواج من خارج اليهود)، مع المعدل السائد عند يهود الولايات المتحدة، وقد زاد مؤخرًا عن 50 ٪، أما التكاثر البشري فقد تقلصت نسبته كثيرًا، ووصلت إلى ما تحت الخط الأحمر طفلان لكل زوج. علمًا أن أوروبا، تضع يهودها أمام تحديات كبيرة، لأن ثلثي يهود أوروبا أبيدوا خلال الحرب العالمية الثانية، ومنذ تلك الأحداث،

واليهود فيها تتقلص أعدادهم بشكل كبير. فمن بين 9.7 مليون يهودي، كانوا يسكنون أوروبا قبل الحرب، لم يبق بعد ذلك سوى 3.9 مليون، هاجر معظمهم إلى الولايات المتحدة وإسرائيل. ومع انخفاض نسبة التكاثر بينهم وصل عددهم حاليًا إلى 1.7 مليون تقريبًا ومن ضمنهم يهود الاتحاد السوفياتي سابقًا، الذي أدى انهياره، وإطلاق الحريات فيه، إلى تحول الهوية اليهودية عند يهود تلك البلاد من «هوية يهودية إجبارية ملزمة»، إلى «هوية يهودية طوعية غير ملزمة»، كم أكدت المؤرخة اليهودية ديانا بينتو، في مؤتمر ستراسبورغ. فاليهودي الروسي أصبح حرًا في التمسك بيهوديته، أو التخلي عنها».

وتضيف بعض أخبار مؤتمر ستراسبورغ، المنشورة في موقع (jta.org) أن العديد من المشاركين لاحظوا ازدياد نفوذ وقوة اليهود المتدينين الأورثوذكس في إسرائيل، ومحاولات فرضهم الإكراه الديني على السكان اليهود العلمانيين وتزايد المخاوف من مضاعفاته، على الحياة الجماعية لليهود، والتسبب بحالة من التدمير الذاتي الداخلي للطوائف اليهودية.

وتشير وثائق المؤتمر إلى أن مؤتمر ستراسبورغ شارك فيه (200) شخصية من علماء الاجتماع والتاريخ، والمسؤولين عن اليهود من 31 دولة من أوروبا، والولايات المتحدة، وإسرائيل والمغرب لمناقشة المواضيع التي تضمنها كتابان أسودان، عن أوضاع اليهود من هذه الناحية كتاب للبروفيسور (برنارد فيسير شتاين) «الشتات اليهودي

المفقود» وكتاب آخر للحاخام الأكبر ليهود بريطانيا (يوناتان ساكس) بعنوان «هل سيبقى لنا أحفاد يهود؟»..

وفي المقابل كان هناك بعض المشاركين الذين تحفظوا على هذه التوقعات القاسية، مثل المؤرخ (يوناتان ويبر من أوكسفورد) الذي أعلن أن «اليهود بصحة نفسية جيدة وسيجدون حلولًا جيدة لهذه التحديات الجديدة». ويتساءل أحد المشاركين: «ومع ذلك يظل السؤال المطروح، والمستمد من نقاشات مؤتمر ستراسبورغ هو: «هل ما زال هناك مجال لاستخدام عبارة «يهود المنفى» طالما وأن اليهود أصبحوا أحرارًا في اختيار البلد الذي يعيشون فيه، وطريقة العيش التي يريدونها؟».

ويستنتج المرء من قراءة بعض الأفكار التي عرضها الموقع اليهودي أن هناك مأزقا ومشكلة تواجهان المشروع الصهيوني وأيديولوجيته التي تأسست على «حاجة اليهود إلى وطن بحجة أنهم يتعرضون للاضطهاد والتمييز أينما كانوا، ولا مستقبل لهم إلا في إسرائيل».

فهذا المبرر الذي كان أحد أعمدة البناء الايديولوجي الصهيوني في أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين أخذ يثبت بطلانه، وعدم فعاليته أكثر فأكثر بين يهود العالم الذين يجدون في البلدان التي يعيشون فيها كل ما يلبي حاجاتهم الأساسية الاجتماعية والاقتصادية والدينية، ولم تعد «إسرائيل» كدولة يهودية تمثل ضرورة لتلبية هذه الحاجات وحمايتها كما لم تعد القوى الاستعمارية التقليدية قادرة على استثماره لتجنيد اليهود في مشاريعهم الاستعمارية.

لقد كان للتطورات الواسعة، التي طرأت على العالم خلال العقود الماضية أهمية واضحة في الحالة التي يتحدث عنها الكتاب ورجال الفكر الصهيوني الآن. والحركة الصهيونية أخذت تنتبه لأبعاد هذه التطورات، وما تحمله من تحديات لمزاعمها ومبرراتها، ولذلك بدأنا نشهد منها تكتيك جديد لتحقيق مهام قديمة جديدة، بالشكل الذي «يتوافق مع متطلبات العصر، وتطوراته «كما أكد البروفيسور (شفايد) في تحليله لمأزق الصهيونية.

وإذا كان «بن غوريون» مؤسس «دولة إسرائيل»، قد أكد قبل خمسين سنة «بأن الصهيونية هي الهجرة إلى إسرائيل» لأن تهجير اليهود إلى فلسطين هو أهم عناصر المشروع الصهيوني واستمراره حتى استكمال أهدافه، كما عرضها «دافيد بن غوريون». (بن غوريون بيوغرافي بالعبرية (www.bgh.org.il /info /develop /biography/) فالهجرة إلى إسرائيل هي إحدى المبررات أو القيم التي أخذت تتعرض أكثر فأكثر خلال السنوات الأخيرة إلى التآكل والتراجع، اللهم باستثناء موجة هجرة يهود بلدان الاتحاد السوفياتي سابقا في بداية التسعينيات والتي بدأ التراجع أخيرًا يتحكم بحركتها على نحو جعل إسرائيل تدق ناقوس الخطر، من قلة المهاجرين اليهود، بل وجعلها تفكر بإحضار بقية «يهود الفلاشا «المتخلفين بالمقارنة مع اليهود في إسرائيل..

فالهجرة في نظر الصهيونية، تمثل استمرار الدورة الدموية للكيان الإسرائيلي، وتوقفها يتسبب في ضعف هذا الكيان، على

الرغم من المساعدات الأميركية والأوروبية التي تصل إسرائيل ولا يمكن الاستغناء عنها، فذوبان اليهود عبر الزواج المختلط، والتمتع بحياة اقتصادية واجتماعية تفتقر لمبررات المجيء إلى إسرائيل، في البلدان التي يعيشون فيها، بدأ ينخر جسم الصهيونية في وقتنا الراهن، ويعمق مأزق استمرارها في مشروعها الكبير، وتحقيق أهدافه البعيدة، وكانت صحيفة هآريتس الإسرائيلية قد خصصت زاوية أسبوعية في التسعينيات تحت عنوان «جدول مؤشرات معاداة السامية (هآريتس 2-8-1997)» : «جاء من ملخصاتها أن عدد المهاجرين من بلدان روسيا الاتحادية انخفض في عام 1997، بشكل حاد عما كان عليه خلال الشهور الخمسة الأولى من عام 1996. فالوضع الاقتصادي في معظم بلدان روسيا الاتحادية أخذ يتحسن أخيرًا، كما بدأ الاستقرار السياسي يترسخ أيضًا. ومسألة وجود «معاداة السامية» (أو شعور اليهود بالاضطهاد)، أصبحت موضع خلاف بين المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة، وبين اللجنة القيادية العليا للمنظمات اليهودية في بلدان روسيا الاتحادية.

وبالمقابل تعرض المنظمات اليهودية في روسيا الاتحادية صورة مناقضة لتلك التي يحملها المسؤولون اليهود المحليون.

فالممثلون عن اتحاد مجالس الطوائف اليهودية، يميلون بشكل تقليدي إلى الإعلان عن وجود مظاهر تسيء لحقوق اليهود، ووضعهم في روسيا الاتحادية، وهي الطريقة التي استخدمها اليهود الصهيونيون في العهد الشيوعي لتجنيد الرأي العام الأمريكي، والكونغرس

والحكومة في واشنطن من أجل هجرة اليهود. بينما يحمل الزعماء المحليون اليهود صورة أخرى، لا يظهر فيها الاهتمام بخلق مزيد من المواجهات مع السلطات الروسية المحلية، ولا بمسألة تشجيع اليهود على الهجرة إلى إسرائيل».

وتضيف هآريتس: «وكانت الدراسة التي أعدتها أخيرًا الوكالة اليهودية (المختصة بالهجرة) حول نشاطاتها في بلدان روسيا الاتحادية، قد أشارت إلى بعض المشكلات الاقتصادية في تلك البلدان، متجاهلة وجود تحسن اقتصادي مستمر. وما يستدل من هذه النتيجة أن طبيعة الظروف الاقتصادية لليهود، ما زالت تشكل العمل الأساسي في تحديد عدد المهاجرين اليهود خلال الأشهر الخمسة الأولى من عام 1997.

ويؤكد (فلاديمير شابيرو) عالم اجتماع يعمل في «مركز الأبحاث اليهودية» التابع لأكاديمية العلوم الروسية، (www.ras.ru /shapiro) أن: «أهمية موضوع وجود معاداة اليهود كعامل لحثهم على الهجرة إلى إسرئيل، أخذ يقل تأثيره أكثر مما سبق، والمصادر الأساسية الثلاثة للمهاجرين اليهود من روسيا الاتحادية، ما تزال على حالها من الانخفاض في أوكرانيا، روسيا، وبلدان وسط آسيا القوقازية».

لكن تقرير «اتحاد المجالس اليهودية من أجل يهود بلدان روسيا الاتحادية»، المهتم جدًا بتهجير اليهود من روسيا، «يحاول دومًا تقديم صورة تشدد على وجود عداء لليهود في تلك البلدان، ويوجه اللوم على واشنطن التي تخالفه في وجهة النظر هذه مطالبًا الإدارة الأمريكية

بفرض ضغوطها، وقيودها على الحكم الروسي، لتحسين أوضاع اليهود الروس».

والحقيقة أن عددا من الصحف الإسرائيلية كانت قد أشارت في بداية عام 1991 أن إسرائيل طلبت من الولايات المتحدة إغلاق أبوابها أمام هجرة اليهود الروس إليها عند بداية انهيار النظام السوفياتي وإطلاق حريات الأفراد! ففي ذلك الوقت فضّل معظم اليهود الروس الهجرة إلى الولايات المتحدة، وليس إلى إسرائيل، إلى أن تدخلت إسرائيل وأجبرت سفارة واشنطن في موسكو والقنصليات الأميركية في روسيا الاتحادية على التوقف عن إعطاء تأشيرات لليهود الروس الذين يريدون الهجرة إلى الولايات المتحدة لكي تجبرهم الوكالة اليهودية التي افتتحت عشرات المكاتب لها في عدد من الدول السوفياتية السابقة على الهجرة الى إسرائيل. وكشفت مجلة فورورد اليهودية الأميركية الاليكترونية: أن 700 ألفا من يهود روسيا نجحوا في الهجرة إلى أميركا وليس إلى إسرائيل و300 ألفا الى أوروبا –ألمانيا وغيرها دون الهجرة إلى إسرائيل علما أن الذين فرضت إسرائيل تهجيرهم إليها بلغ عددهم 700 ألفا هاجرت نسبة منهم بعد سنوات من وصولهم في بداية التسعينيات إلى إسرائيل نحو أميركا بجوازات سفر إسرائيلية

Forward.com) (article:how many russian speakers) (in usa

وتعترف صحيفة هآريتس (10-12-1997) بحقيقة أن التقرير السنوي الخاص بموضوع معاداة اليهود في العالم لعام 1997 والذي

تعده للنشر «اللجنة اليهودية الأمريكية» يشير بشكل «مشجع»، إلى وجود نسبة كبيرة من الشخصيات اليهودية في قمة الحكم، وفي قمة الاقتصاد في روسيا، وإلى أن هذه الظاهرة لم تؤد إلى ما يبدل آراء الجمهور الروسي التقليدية حول تفضيل الاستقرار في روسيا. كما يؤكد (أليكساندر أوسوفتوف) نائب رئيس الكونغرس اليهودي الروسي أن «ازدياد نشر أنباء عن معاداة اليهود لا يدل أبدًا على ازدياد مشاعر العداء لليهود وإنما إلى افتقار للرقابة على الصحف..».

وإلى جانب هذه الأوضاع عرضت صحيفة هآريتس في عددها الأسبوعي بمناسبة نهاية عام 1997 أوضاع اليهود في دول العالم وصورة الصراع الحاد الدائر بين اليهود الأورثوذكس، واليهود الإصلاحيين في مختلف بلدان العالم: «ففي بريطانيا حيث يوجد 300 ألف يهودي امتنع في آذار 1997 «يوناتان ساكس «الحاخام الأكبر لليهود هناك، عن المشاركة في جنازة الحاخام اليهودي الليبرالي الشهير «هوغو غرين»، كيلا تفسر مشاركته كاعتراف بالمذهب اليهودي الليبرالي.

وكان الحاخام ساكس، قد كتب مقالًا ضد اليهودية الليبرالية، التي لا تؤمن بأن التوراة جاءت من السماء، معتبرًا كل من يفعل ذلك، «يكون قد قطع نفسه عن معتقدات الأجداد».

وفي فرنسا، حيث يعيش 600 ألف يهودي، معظمهم من العلمانيين غير المتدينين، أخذ الخلاف يزداد خلال عشرات السنوات الماضية، خصوصًا بعد ازدياد عدد اليهود المغاربة الأورثوذكسيين، الأمر الذي

قسّم اليهود هناك، إلى يهود ليبراليين، وعلمانيين من جهة، ويهود أورثوذكس مغاربة من الجهة الأخرى.

وفي ألمانيا، حيث يعيش 50 ألف يهودي دب خلاف حاد أيضًا بين هؤلاء الأورثوذكس الجدد، واليهود الليبراليين والعلمانيين وأخذ يؤثر على علاقاتهم التي ساءت كثيرًا في الآونة الأخيرة.

وفي هولندا، وصل الانشقاق بين اليهود الأورثوذكس، واليهود الليبراليين، إلى حد، رفض فيه كل طرف الاشتراك مع الطرف الآخر في احتفال ذكرى القتلى اليهود في الحرب العالمية الثانية في ألمانيا.

أما طائفة اليهود في الولايات المتحدة، وهي الليبرالية، والمحافظة والإصلاحية والعلمانية، فلا تواجه صعوبات هناك لأنها تشكل 85٪ من اليهود الأمريكيين.

وحين يجري الحديث عن اليهود الأمريكيين، فلعل أكثر من يعبر عن آراء «ما بعد الصهيونية» بتبنيها للحداثة، والعلمانية، وتحويل إسرائيل إلى دولة ديمقراطية، لجميع مواطنيها، يهودًا وغير يهود، مثل بقية دول العالم هو البروفيسور «آرثور هرتسبيرغ» المختص بالعلوم الروحية في جامعة نيويورك، وحاخام المذهب الإصلاحي اليهودي في الولايات المتحدة ومؤلف كتاب «الفكرة الصهيونية 1997»، ورئيس المؤتمر اليهودي الأمريكي في السبعينات.

ففي كتابه التاريخي، بعنوان A Historical Analysis and The Zionist Idea (Reader:) (الفكره الصهيونية 1997) صادر

عن(Jewish publication society –october –1 –1997)
يقول هرتسبيرغ:

«لم تسلّم الحركة الصهيونية، بشتى أنواعها، من التهجم على جهود يهود الشتات، فالمحافل الصهيونية، اتفقت جميعها على أن يهود الشتات مصابون بمرض عضال، جعل معظمهم يدعون إلى موتها..

ولم تفعل الصهيونية جديدًا، فالأجيال التي تعيش في إسرائيل تؤكد أن الحياة اليهودية فيها قاسية، رغم اعتقاد هؤلاء بأنهم هم اليهود الحقيقيون، وفي المقابل يعتقد يهود الشتات أن يهوديتهم أفضل من يهودية يهود إسرائيل.

والحقيقة هي أن حنق الصهيونيين على يهود الشتات سببه استجابة اليهود للانعتاق الذاتي منذ الثورة الفرنسية. فاليهود الذين يؤمنون بالذوبان في مجتمعاتهم، أو بشكل ما من أشكال الذوبان، في ذلك الوقت طالبوا بإحداث تغييرات جذرية، في البنية الاقتصادية والحياة التربوية للغيتو اليهودي، وطالبوا بأن يبدأ فقراء الطائفة اليهودية في الغيتو، بالعمل في الزراعة والصناعة.. كان أولئك «الثوريون» اليهود يريدون قطع الفقراء عن ثقافة الغيتو، لأنها ضعيفة وبائسة، من أجل إخراجهم من الظلمة إلى نور الثقافة الغربية.. والصهيونيون في نهاية القرن التاسع عشر، كانوا امتدادًا لليهود المتمسكين بالغيتو، والرافضين لثقافة التنوير.. فهؤلاء يزعمون أنّ الثقافة اليهودية الصهيونية الجديدة التي ستنبت في أرض إسرائيل لن يكون فيها ما يذكّر بثقافة الغيتو البائسة. «ويضيف هيرتسبيرغ في كتابه أن «الهجرة اليهودية الكبيرة إلى

الغرب، وخصوصًا إلى الولايات المتحدة قبل مئة عام شكلت دليلًا على التمرد على ثقافة الغيتو الانعزالية».

ويقول هرتسبيرغ عن اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين أنهم «محوا كل ذكر للتوراة وللوصايا، بحيث أصبحوا يشبهون الفوضويين في نيويورك، وشيكاغو، وفيلادلفيا في بداية القرن العشرين، والكثيرون منهم قطعوا صلاتهم بطائفة الشتات، والثقافة اليهودية الأوروبية الشرقية مسقط رؤوسهم. ويرى هيرتسبيرغ أن «الغضب الصهيوني ضد يهود الشتات يغذيه عامل آخر، هو عداء الصهيونية لأفكار اليهودية الإصلاحية.»

فقد كان أتباع اليهودية الإصلاحية في أواسط القرن التاسع عشر واثقين، ومؤمنين أنهم بعد نيلهم حقوقًا متساوية في البلدان التي يعيشون فيها، ستصبح أيام «الانعتاق المسيحاني الحقيقية» معدودة. لأن معتقدهم يستند إلى الرأي، بأن أي تغيير ذاتي يقوم به اليهودي، هو أمر مفيد يستحق الجهد، بل يجعله يتذوق الحياة في المجتمع الذي يحيط به، وبهذه الطريقة يساهم بدور مفيد لكل يهود الشتات».

ويواصل (هرتسبيرغ) دفاعه، عن فكرة اليهود الإصلاحيين الداعية إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم التي يعيشون فيها قائلًا: «ولم يكن لدى الاشتراكيين الثوريين اليهود بشتى أنواعهم، أي شك بأن اليهود يحسنون لأنفسهم، ويستفيدون مع العالم كله، إذا تم استيعابهم في المجتمع غير الطبقي، الذي تطلعوا إلى قيامه بعد الثورة الاشتراكية.. حتى أن نبوءة (هرتزل) اعتبرت أن الشعب اليهودي يستطيع إحلال السلام بينه، وبين العالم، حين يصبح مثل بقية الشعوب، وحين تقوم

ديمقراطية يهودية علمانية ليبرالية، وتذوب الأقليات اليهودية المتبقية في الشتات بشكل تام في مجتمعاتها.ورغم أن هذه الحلول للمشكلة اليهودية تبدو متطرفة جدًا، لكن ألم يتوقع اليهود عبر أجيال كثيرة أن تقع كارثة كبرى على هذا العالم وتبشر بعد ذلك بعهد الخلاص وتعيد تشكيل العلاقات بين الشعوب؟ والآن وبينما نشهد اقتراب مجيء المسيح أي (الخلاص الأبدي) مجسدا بهذه الأحداث التاريخية أصبح التطرف مقبولا من الجميع، لذلك ومنذ هذه اللحظة، يتعين أن نطلق على «المسيح» اسمه الجديد، وهو التقدم. وأجواء التفاؤل، التي سادت في القرن الماضي، ها هي تعبر عن نفسها بأفكار جميع الحركات اليهودية التي تبنت الحداثة. وبموجب ما كان يقوله الكتاب المؤمنون «بالمسيح اليهودي المنتظر» منذ ظهور فكرته، لم يعد هناك ما يعني وجود فصل آخر في تاريخ البشرية لأننا وصلنا إلى أوج التاريخ».

وبهذا الشكل وصف «بن تسيون دينور «مجمل الأحداث التاريخية الإسرائيلية في كتابه(صراع الأجيال الإسرائيلية من أجل الأرض صدر بالعبرية عام 1975:

«ثمة ثلاث مراحل أو فصول في تاريخ شعب إسرائيل:

1 الشعب يستوطن أرضه.

2 الشعب يخرج للمنافي، ويتوقع العودة إلى أرضه.

3 الشعب يعود لأرضه في لحظة أوج، وإنهاك واستنفاذ ذاتي».

ويرى هرتسبيرغ أن اليهود في إسرائيل، «يمرون الآن بالمرحلة التي تأتي بعد الثالثة»

يتابع هرتسبيرغ ملقيًا ضوءًا على طبيعة اليهود، وخطاياهم الكثيرة التي جعلت «رب إسرائيل» يحملهم أعباء كثيرة في التوراة:

قال حاخامونا: «لولا خطيئة إسرائيل، لاكتفى الرب بفرض خمس أخماس التوراة عليهم، وبسفر يهوشع فقط». أي أن تاريخ بني إسرائيل في هذه الحالة، سينتهي حسب «سفر يهوشع» باحتلال أرض إسرائيل. لكن الشعب ارتكب خطيئة فاضطر أنبياء إسرائيل إلى البرهنة عن هذه الخطايا. واضطر أيضًا أصحاب «المشناة والجمارا» (التلمود) إلى توسيع التوراة، واستمرّ الحال حتى يومنا هذا.. ولم يبق سوى فصل واحد، ها نحن نشهده. وفي واقع كهذا، مطلوب منا، الحفاظ على أرواح الشعب في إسرائيل والخارج، ومطلوب منا العودة إلى الارتباط بـ (1500) عام من العمل اليهودي في الشتات، ومطلوب منا تعلم العيش دون التمييز الخطير القاتل، وبهذا تقترب أيام ظهور «المسيح» اليهودي. إن إيماني هذا ينبع من نبوءة مختلفة عن تاريخ شعب إسرائيل. فهذا الشعب تعرف عن قرب، على جميع الثقافات، والقوى الكبرى في أوروبا والشرق الأوسط. وفي كل مرة كانت ظاهرة انجذاب معظم اليهود، لثقافة وقوة الأغلبية المحيطة بهم تكرر نفسها، وكما قال «المدراش» (جزء من التلمود): «عبر أبناء إسرائيل أرض مصر واختار أربع أخماسهم البقاء في مصر آنذاك. وها نحن نرى أن عشرة أسباط من أبناء إسرائيل ذابوا بسرعة في الشتات وهذا ما فعله معظم اليهود، الذين أصبحوا يونانيين، بعد أن عجزوا عن الصمود

أمام الثقافة اليونانية بعد ثمانمئة عام. ونحن لا نعرف كم من اليهود فضلوا أن يسلموا (يصبحوا مسلمين) أو يتنصروا في القرون الوسطى. فلا جديد في الذوبان الواسع لليهود، ومن يزعم أن هذا يعتبر كارثة لا سابقة لها، إنما يفعل ذلك لأسباب أيديولوجية وحزبية. إن اليهود اليوم، يتمتعون في بلدان العالم، بمساواة في الحقوق لم يسبق لها مثيل في الماضي، وهؤلاء اليهود، يسيرون على درب اليهود، الذين سبق لهم في الماضي أن تمتعوا بعظمة الحضارة الهيلينية، أو بغنى العصر الذهبي في الأندلس. إن الذوبان هو الثمن المقدر علينا دفعه، لأننا أقلية في المنفى، فنحن شعب صغير حتى في إسرائيل.

وحين ندخل في المرحلة القادمة في عام 2001، سنواجه بداية ألف جديدة، وسيتعين علينا معرفة كيفية مواصلة طريقنا، كشعب بالطريقة التي تتناسب مع الظروف الجديدة، لأن الطريقة التي استخدمناها من قبل مئة عام لن تعود مناسبة، والدولة القومية، هي نتاج القرن التاسع عشر، ومن خلالها حرر الكثير أنفسهم من الظلم الثقيل.. وكان التطلع لدولة قومية لليهود، قد ساهم بعملية تطور الصهيونية، وأثّر في سعيها، إلى جعل اليهود شعبًا كبقية الشعوب. لكن دولة مشكّلة من قومية واحدة، ليست هي الشكل الثابت، والنهائي للنظام السياسي ففي جميع أنحاء العالم، هناك ضغط على الأنظمة السياسية، لدفعها إلى التوسع واستيعاب الأقليات البارزة. وما يزال التمسك بصفوة سكان الدولة القومية، يتطلب ثمنًا دمويًا، مثلما جرى في عمليات التطهير الإثني في يوغسلافيا (السابقة)، وفي القتل في رواندا، وفي الحرب الأهلية في شمال إيرلندا. فالمستقبل لن يكون على هذا النحو. ففي يومنا هذا

تقيم الشركات التكنولوجية المتطورة صلات متبادلة في إطار السوق العالمي، وهناك انتقال للبشر. ومن يواصل التمسك بسياسة قومية منعزلة، أو موجهة ضد الأجانب في بلاده، ويحاول فرض سياسة كهذه بالقوة مثل (سنغافورة) لن يحصد سوى الفشل. ففي العصر الجديد ستتبلور سياسات، وستظهر مناطق متعددة الثقافات والقوميات. لكن ما معنى ذلك بالنسبة لليهود؟

بالنسبة لليهود في المنفى الإجابة جاهزة. فأكبر تجمع يهودي في الشتات، هو يهود الولايات المتحدة، فمنذ (300) عام، وهؤلاء اليهود يؤمنون بأن طابع المجتمع الأمريكي سيسيطر على الأغلبية المسيحية البيضاء. وآمن اليهود أيضًا بضرورة الاندماج في هذا المجتمع، وبدأوا يقنعون هذه الأغلبية بالجذور اليهودية للثقافة المسيحية، وسعوا أيضًا إلى إغناء الثقافة الأمريكية بثقافة «يهودية مسيحية». ورغم بعض الإنجازات في هذا الاتجاه ليس هناك أمل بنجاح هذا التطور اليهودي المسيحي في الولايات المتحدة، فاليوم نجد أن نصف الأطفال الذين لم يبلغوا إلا ثمانية أعوام في الولايات المتحدة هم من غير الأصول البيضاء أو الأوروبية، وفي عام 2050 لن يكون في المجتمع الأمريكي سوى النصف من البيض. إذ ستسيطر أقليات إثنية كثيرة على مراكز القوى، وبين النخبة سواء من اليهود الأمريكيين، أو الأفارقة الأمريكيين أو الآسيويين، أو من أصحاب الثقافة (الإسبانية الأمريكية) بين كافة المهاجرين، الذين جاءوا من آسيا إلى جانب المسلمين من القارات الأخرى».

*** ويتساءل هرتسبيرغ:**

«ما هو موقع إسرائيل في هذه الصورة إذن؟» ويجيب:

«انطلاقًا من النظرة الشاملة، لم يعد هناك أهمية للسياسة الخاصة في هذه اللحظة أو الأخرى، وإسرائيل الواقعة بين نهر الأردن والبحر ستبقى بلادًا لشعبين، سواء تم رسم حدود كل شعب، أو وضعت ترتيبات جديدة أو لم توضع. ولا يهم نوع العلم الذي سيرفرف فوق رام الله بعد خمسين سنة، طالما وجدت فيها صناعة وتجارة متطورة، وطالما أقامت إسرائيل معها علاقات وارتباطات. والنظام السياسي في المستقبل سيحمل طابعًا إقليميًا واضحًا، حسب النموذج الأوروبي، وفي هذا النظام الجديد مطلوب منا نحن الصهيونيين التمسك بقيمتين أساسيتين هما: الثقافة والتراث اليهوديين، وحق عودة أي يهودي لإسرائيل بين شعبه الصهيوني القومي.. ولليهود بطبيعة الأمر طريقة أخرى، تختلف عن طريقة الاندماج بالنظام العالمي الجماعي الجديد، هي طريقة الانغلاق والانعزال. ففي إسرائيل، والخارج ثمة مجموعات تؤمن بعدم ضرورة موافقة إسرائيل على التسوية. فليس صدفة أن نرى اليهود الحاراديم، الذين كان معظمهم حتى قبل زمن قريب، معاد للصهيونية أصبح معظمهم يتقارب مع القوميين. ونفس الإحساس، يفعل فعله في الحالتين، وهذا ما يؤمن لنا الحق، حتى الحق الإلهي بالمطالبة بدولة قومية بشروطنا..»

*** ويتساءل هيرتسبيرغ مرة أخرى:**

«لكن هل وصلت الدولة القومية اليهودية إلى نهاية التاريخ؟ وهل تتناسب الصهيونية كما عرفناها مع العهد التاريخي الذي انتهى؟» ويجيب: «سنضطر نحن الصهيونيين أن نفعل ما فعله هرتزل قبل مئة سنة فهو أعاد تقرير شعب إسرائيل لمصيره من جديد فيما يتناسب مع المرحلة القومية. أما نحن فعلينا أن نقرر مصيره من جديد بما يتناسب والعهد الجديد، عهد الدولة متعددة الأقليات الإثنية.. وإذا كان هذا لا يعني الانعزاليين، فإن الغالبية العظمى من يهود إسرائيل والخارج، يريدون العيش كيهود داخل المجتمع المحيط بهم، وشعب إسرائيل سيضطر إلى طرح سؤال هو سؤال القرن:

من هو اليهودي في المجتمع الشامل المتعدد الإثنيات، وأية قيم يريد شعب إسرائيل أن يتخذ ويجسد؟

قبل مئة عام، وعند بداية طريق الصهيونية السياسي، أجاب هرتزل على السؤال لجيله ولأجيالنا، وهذا ما كتبه في العدد الأول من مجلة «دي فيلت» (العالم): «فليبدأ بالتصرف الآخرين بطرق لطيفة، فليس الفقراء وحدهم من يطالب بالإصلاح الاجتماعي، بل الطبقات الأرستقراطية أيضًا. والحركة اليهودية مهمتهم، لأن السلام والإصلاح الاجتماعي لن يقدما مساعدة لشعبنا بل لكل الشعوب».

ويقول (إبراهام رابينوفيتش) الباحث المختص في الدراسات اليهودية في الجامعة العبرية في القدس في

مقال بعنوان: «التاريخ اليهودي على مفترق الطرق (Jerusalem Post 8/ 8/ 1997)

«من الممكن أن تفقد إسرائيل دورها كمحور لعجلة الهوية اليهودية. فاليهود الأمريكيون أخذوا يتحولون إلى الروحانية، والحاخامات النساء الأورثوذكس اقترب الزمن الذي سيتشكلون فيه. فماذا يخبئ المستقبل بعد للشعب اليهودي؟».

وفي المؤتمر العالمي الثاني عشر للدراسات اليهودية الذي عقد في الجامعة العبرية في عام 1997، وحضره ألف باحث يهودي من إسرائيل والعالم، جرى نقاش حول مستقبل اليهود واليهودية حيث جرى تبادل آراء سوداوية عن مستقبل اليهودية.. كان (رابينوفيتش) أحد الحضور الذين قدموا أبحاثا وقد كتب بروح متشائمة قائلًا: (جروزليم بوست بالانكليزية 8-8-1997) «لا تلقي حملك يا إسرائيل.. فالرحلة لم تبدأ بعد.. لأن الألف باحث في الدراسات اليهودية من إسرائيل والخارج، الذين يتطلعون إلى استكشاف ومضة من القرن القادم، تنبهوا في الأسبوع الماضي إلى أن حقيقة أن عودة إسرائيل إلى أرض الميعاد، أو صلواتهم من أجل ظهور «المسيح» لم توفر للشعب اليهودي الاستمرار في المسيرة التاريخية والتحولات، الدراماتيكية المصيرية بالنسبة لشعب إسرائيل. فالتاريخ اليهودي أخذ يميل إلى التوقف، بعد أن استنزفته «مذابح اليهود» في الحرب العالمية الثانية، وتأسيس دولة إسرائيل.

فبعد نصف قرن من هذه الأحداث فضّل الخطباء البارزون في المؤتمر العالمي الثاني عشر للدراسات اليهودية المنعقد في الجامعة

العبرية تحويل الأنظار عن الماضي، والتركيز على مسائل تتعلق بتاريخ مستقبل اليهود. وكانت إحدى الأفكار المضحكة، التي أثيرت بمناسبة مرور مئة عام على انعقاد أول مؤتمر صهيوني، هي التقلص المتوقع لأهمية إسرائيل بصفتها محور الهوية اليهودية. واعتبار «يهود الشتات» أصحاب الدور المتزايد كمركز ثقافي هام لليهودية. أما ذاكرة المذابح اليهودية، التي شكلت ناقلًا رئيسًا عند الكثير للهوية اليهودية، فقد اعتبرت باهتة مع هذا القرن.»

وقال البروفيسور «نايل غيلمان» في موقعه: الندوة اليهودية الثيولوجية في نيويورك (www.Jtsa.edu /Acadimics /Neil Gillman) جروزليم بوست 8-8-1997:

«إن اليهودية تتعرض لمرحلة انتقالية مهمة في الولايات المتحدة على الأقل. فالمجتمع الملتف حول محور اليهودية كشعور قومي، والذي كان مقبولًا بصفته المصير اليهودي المشترك للطوائف اليهودية، أخذ يخلي الطريق إلى قبول اليهودية كدين، وقطعت التطورات شوطا بعيدًا جدًا، الأمر الذي جعل الحاخامين الذين يقدمون طقوس العبادة بيدأون بالتحدث عن الرب كموضوع غير عصري، حتى اليهود الإصلاحيين أخذوا يتحولون إلى الدين وإلى المصلين اليهود، والحديث عن الرب والشريعة»..

وأضاف غيلمان وهو حاخام محافظ غير أورثوذكسي: «إن اليهودية المرتكزة إلى المحرقة و المذبحة، لم تعد كافية كمحور لتجميع اليهود،

وكذلك إسرائيل أيضًا.. فإسرائيل لا يمكنها أن تحل أبدًا محل اليهودية وهي لم تخلق نظامًا متجانسًا من الفوضى..».

ويضيف رابينوفيتش: «وقد ظهر في المؤتمر أن ما يهم يهود أمريكا بشكل متزايد هو الالتفاف إلى مظاهر غموض الحياة والروحانية. وكما قال غيلمان أن» يهود حركته يجدون في المواعظ التي تقدم في الكنيس اليهودي مجرد أشياء باردة لا تهمهم.

وتأكيدًا لهذه الحقيقة قام ثلاثة آلاف يهودي في إحدى الكنس في مانهاتن بالرقص والغناء بدلًا من ممارسة طقوس اليهودية الشرعية. (جروزليم بوست بالانكليزية 8-8-1997)

وتوقع غيلمان أن «تطرأ تغيرات حتى على اليهود الأورثوذكس خلال زمن قادم، وعند حدوث ذلك لا أحد سيكون بمقدوره إغلاق الباب أمام ما هو أوسع».

أما البروفيسور (آرثر هرتسبيرغ) من جامعة نيويورك فقد لاحظ أن «الصهيونية اعتادت على اعتبار يهود الشتات كيانًا مريضًا قابلًا للموت، إذا لم ينقذه بقية الشعب اليهودي عن طريق تشكيل صهيون (إسرائيل) كمركز روحي للجميع. والحقيقة على أية حال، هي أن يهود الشتات، هم من أسسوا كل حركة دينية أو علمانية يهودية، ومن ضمنها الحركة الصهيونية». ودعا المؤرخ هرتسبيرغ إلى «إعادة ربط الصلات مع التجربة اليهودية الممتدة، عبر 15 قرنًا من الشتات. ويجب أن نتعلم أن نحيا دون الأوهام الخطيرة والحميمة، التي تقول بأن العصر المسيحاني

(ظهور المسيح اليهودي) اقترب كثيرًا منا. فهذا العصر الجديد ليس نهاية التاريخ..».

وفي ذلك المؤتمر، الذي شارك فيه البروفيسور (أليعازار شفايد) خالف (هرتسبيرغ) بعض الخطباء حين قال: «وبالنسبة لإسرائيل فقد تشكلت رؤية هرتزل للدولة اليهودية العادية في عصر الدولة القومية، وهذا العصر أخلى طريقه إلى البنى الإقليمية المستقبلية على غرار ما يحدث في أوروبا الآن.

فالحالة الصحيحة للقرن القادم، هي الدولة المتعددة الإثنيات والثقافات والأديان، وهذا ما سيحدث مع إسرائيل وجيرانها». ويتساءل رابينوفيتش قائلًا: «وماذا يمكن أن يحدث أكثر من ذلك للشعب اليهودي اليوم؟ ويجيب رابينوفيتش:

«حاول المؤتمر تقديم أبحاث حول تعلم التوراة، ووسائل الإعلام الإلكترونية، والفلسفة اليهودية وأمركة أساليب حياة اليهود الأورثوذكس... وكذلك عن اليهود الروس في إسرائيل، وازدهار حركة النشر بالروسية (50 مطبوعة باللغة الروسية تصدر في إسرائيل) وكراهية اليهود الإسرائيليين لهم.

هذا هو المشهد الثقافي في إسرائيل والشتات. ألوانه متنوعة، ويعد بظهور أشكال وظلال جديدة في السنوات المقبلة، التي سيكيف «الشعب اليهودي» نفسه فيها مع المتغيرات المتسارعة في العالم،

وبينما تتحفز غريزة الحفاظ على الحياة تتقدم مسيرة اليهود من الانعتاق القومي، متجهة إلى القرية العالمية وما يمتد فيها».

وإذا كان أتباع هذه الأفكار داخل الحركة الصهيونية، يمثلون بشكل جوهري، المضمون الذي يعرضه (هرتسبيرغ) ومحافل «ما بعد الصهيونية» فما هي الدلالات التي تحمله هذه الأفكار على المشروع الصهيوني؟.

يبدو أن أهم الدلالات التي تحملها هذه المنظومة من الأفكار هي:

1 أن المشروع الصهيوني، لا يمكنه الاستمرار حسب مخططه القديم، بسبب عوامل خارجية عالمية، وعوامل داخلية تتعلق بواقع إسرائيل الراهنة، وطبيعة الظروف التي تشكلت فيها، وتبلورت خلال خمسين عامًا، والتي سبق أن التطرق اليها فهي لا تستطيع أن تكون دولة لليهود فقط. فوجود أكثر من مليون فلسطيني (20 ٪ من سكان إسرائيل) فرضت عليهم الجنسية الإسرائيلية، واستمرار صمودهم فوق أراضيهم، وحفاظهم على شخصيتهم وانتمائهم العربي طوال تلك الفترة، ما زال يعيق تحويلها إلى دولة لليهود وحدهم، وهذا ما وضع الحركة الصهيونية وإسرائيل أمام استحقاق أن يفرض المجتمع الدولي الحديث على إسرائيل أن تكون دولة كافة مواطنيها، وما يفرضه هذا الاستحقاق على النظام السياسي والقومي والاجتماعي والثقافي فيها ومضاعفاته على مستقبلها الصهيوني في العقود المقبلة.

2 إن احتلال بقية أجزاء فلسطين عام 1967، وعدم نجاح المشروع الصهيوني في تهجير جميع السكان الفلسطينيين حتى الآن، واستمرار صمودهم، ونضالهم خلال ثلاثين عامًا، وتطلعهم إلى حل أدنى هو منحهم دولة في الضفة الغربية وقطاع غزة، أدى إلى نوع من زعزعة مشروع إنجاز إسرائيل الكبرى، وأعاق بناء الدولة اليهودية على كل فلسطين. فوجود 2.5 مليون فلسطيني فيها بموجب إحصاءات عام 1995، ما زال يضع إسرائيل والمشروع الصهيوني أمام أكبر التحديات المهمة، والعراقيل التي يستحيل على إسرائيل التغلب عليها للاستمرار في تحقيق أهداف المشروع الصهيوني على كامل الوطن الفلسطيني.. فضم الضفة والقطاع إلى إسرائيل بالسكان الفلسطينيين سيجمع كتلتين بشريتين مختلفتين من كافة النواحي في إطار نظام سياسي لا يمكن في هذه الحالة أن يكون يهوديًا وإنما «مزدوج القومية» إن جاز التعبير افتراضيًا.

وبذلك يسقط مشروع «دولة اليهود» لليهود، وهو الهدف الأساسي للصهيونية. كما أن إعطاءهم حكمًا ذاتيًا فوق كافة أراضيهم، وبسيادتهم عليها يؤدي إلى عدم انسجام المشروع الصهيوني مع أهدافه، ومستقبل تحقيقها.

3 إن استمرار الصمود العربي حتى في أدنى مستوياته أمام المشروع الصهيوني خلال الخمسين سنة الماضية، والدعوة العملية لاستمرار الصراع ضده، قد وضعت الحركة الصهيونية، وإسرائيل أمام مهمة إعادة النظر في تكتيكاتها القديمة، ومحاولة انتهاج سياسة أطول من حيث الزمن والترتيبات العملية.

4 إن المتغيرات الليبرالية، والتبشير الصهيوني بعهد جديد في القرن القادم استدعى من الصهيونية إعادة تشكيل أفكارها وتوجهاتها إزاء المستقبل للحفاظ على منجزات الحركة الصهيونية وتوسيعها، وبعبارة أخرى: تحقيق بقية أهدافها بوسائل أخرى، غير تلك التي لم تعد مناسبة، أو مفيدة أمام ميزات وظروف هذا العالم الجديد.

5 إن منظومة أفكار «ما بعد الصهيونية»، وما شابهها من آراء سياسية عند يهود إسرائيل، ويهود العالم تمثل صهيونية جديدة أمام الصهيونية الدوغمائية، أو السلفية إن جاز التعبير، وهي محاولة لا تقطع صلاتها بالصهيونية، وإنما تمثل حيوية جديدة في قلب الأيديولوجية الصهيونية لتحقيق نفس الأهداف الصهيونية العريضة بطرق ومفاهيم يراد تكييفها للمحافظة على استمرار حياة ووجود المشروع الصهيوني.

6 إن الدعوة إلى «ذوبان اليهود» في المجتمعات المختلفة التي يعيشون فيها في شتى أنحاء العالم لا تكفي لوحدها في توقف المشروع الصهيوني و الهجرة والاستيطان في فلسطين عن الاستمرار إن كانت تحرمه من مصادر بشرية واستيطانية كثيرة وجديدة.فارتباطه الوظيفي السياسي والاستراتيجي بالولايات المتحدة والغرب سيظل يشكل عاملا أساسيا في مواصلة أهدافه وصراعه من أجل البقاء طالما بقي مفيدا وضروريا للمشروع الامبريالي الكبير في المنطقة.

و ذوبان اليهود في الغرب لن يمنعهم بصفتهم مواطنين غربيين بشكل عام عن الدفاع عن مصالح الغرب في الوطن العربي والمنطقة

وتوظيف إسرائيل وصهيونيتها في خدمة هذه المصالح حتى لو كفوا عن أن يكونوا صهيونيين في تلك المجتمعات الأوروبية.

فقبل مئة عام شهدنا تأسيس الحركة الصهيونية التقليدية في ظل ظروف كانت فيها القوى الأوروبية تتصارع على المستعمرات في آسيا وإفريقيا واقتسامها خصوصًا في الوطن العربي، مما جعل قادة وأتباع الحركة، يوظفون أنفسهم سماسرة، لمن يقبل من تلك القوى بتبادل المصلحة مع الصهيونية، أو الاعتراف ببعض مصالحها مقابل خدمتهم، وتجنيد اليهود الأوروبيين لصالح مشاريعهم الاستعمارية عشية الحرب العالمية الأولى، أو لم يطرق قادة الحركة الصهيونية أبواب ألمانيا، وبريطانيا بل وروسيا القيصرية والسلطان العثماني أيضًا لعرض مشروعها وإقناع أي طرف من هذه الأطراف بتبنيه وتوظيفه؟

فقد اعتاد الصهيونيون دومًا الانطلاق في توجهاتهم بالاستناد إلى طبيعة الظروف العالمية ومميزاتها، والتكيف مع مصالح هذه القوة أو تلك، لتحقيق المصلحة المشتركة.

وإذا كان أولئك الصهونيون سماسرة للقوى الاستعمارية التقليدية، وهي مهمة تتوافق مع طبيعة ظروف ذلك القرن، فصهيونيو هذا العصر يواجهون ظروفًا مختلفة، وعالمًا جديدًا يحتاج إلى سماسرة جدد غير أولئك القدامى.

فعصرنا الآن ليس اقتسام العالم عبر احتلال مباشر، وتسخير مباشر وحشي لشعوبه، وأراضيه، إنه عصر التكنولوجيا والتحكم عن بعد، عصر اقتسامه بوسائل جديدة، عصر القرية العالمية، والقوة الناعمة (سوفت باور) العصر الذي جعل بروفيسور العلوم الروحية اليهودية (هرتسبيرغ) يصف من خلاله مسيح اليهود الذي ينتظره المتدينون «بمسيح التقدم» حين قال: «هذا هو مسيحنا»: «التقدم». وإذا كان «المسيح» يرمز للخلاص فإن أفكار «ما بعد الصهيونية»، الهادفة إلى تحقيق الخلاص (ولا ندري الخلاص ممن) ستحاول الدخول، والتغلغل والسمسرة بطرق وأساليب جديدة في قلب عالم جديد يختلف عن عالم (هرتزل) وسماسرة الاستعمار التقليدي القديم.

وهكذا تصبح الدعوة إلى «الذوبان» جواز مرور هؤلاء الصهيونيين الجدد المتجددين إلى مراكز التحكم، والسيطرة الجديدة بالعالم، وهي المال والاختراع ووسائل الإعلام، وتسخير ذلك كله من خارج إسرائيل وداخلها، ومن مواقع القوى العالمية لخدمة بقية أهداف المشروع الصهيوني باسم جديد، هو الحفاظ على علاقة اليهود بمركزهم الروحي اليهودي العالمي في الخارج، كما يدعو (هرتسبيرغ)، وتمتين الروابط الأساسية بين «يهود الشتات» والمركز الروحي اليهودي في إسرائيل، الذي يراد تحويله إلى أكبر تجمع لليهود في العالم بحيث يضم ستة، أو سبعة ملايين مع إبقاء «يهود الشتات» متوزعين على مراكز القوى في العالم لخدمة المركز الروحي اليهودي في إسرائيل معقل الصهيونية ودولتها القوية.

إن منظومة أفكار «ما بعد الصهيونية»، ليست في المحصلة النهائية سوى «صهيونية متجددة» رغم ما تحمله من تناقضات مع الصهيونية التقليدية الهرتزلية أو صهيونية ما بعد إعلان إسرائيل.

وهذا ما يشكل في النهاية تأكيدا لحقيقة، أن لكل زمان وظروف رجال وسماسرة مناسبين لتسخير كل شيء في خدمة المشروع الصهيوني المتجدد بوسائل جديدة.

أو لم يكن التاريخ اليهودي مجرد سجل لروايات السماسرة، والحاخامين خدم الإمبراطورية الرومانية واليونانية منذ أكثر من ألفي سنة؟!.

أو لم يكن حاخامو السانهدرين في القدس وهو مجلس الحاخامين الأعلى الذي يضم 120 حاخاما قبل وعشية ظهور المسيح عيسى الناصري «ابن مريم» عليه السلام، سماسرة للولاة الرومان في فلسطين، ومتآمرين على ملاحقة المسيح عيسى، واضطهاد أتباعه من أجل خدمة مصالحهم؟..

أو لم يكن الحاخامون من قبل ذلك أيضًا، سماسرة للإمبراطور الفارسي كورش، الذي أتاح لهم بموجب ما تسطره نصوص أساطيرهم التي كتبوها بأيديهم العودة إلى القدس بعد أن كان قد أجلاهم عن فلسطين كلها (نبوخذ نصر) كما تروي «توراتهم» و «تلمودهم»؟

لكن اليهود بعد ظهور الإمبراطورية البيزنطية واعتناقها المسيحية، لم يجدوا من يعملون له سمسارًا لتحقيق أغراضهم لأن اعتناق الرومان للمسيحية في عهد قسطنطين والسماح باعتناق المسيحية قطع الطريق أمام من عذب المسيح، ولاحق أتباعه في عهد روما..

وبعد الفتح الإسلامي لفلسطين، أيضًا لم يجد الحاخامون اليهود من يسمسرون له، خاصة وأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمين كانوا على دراية بشرورهم منذ بدء الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية.

لكن القرن التاسع عشر الميلادي، وما تميز به من ظروف مختلفة وفّر فرصة مناسبة لهيرتزل الذي يمكن اعتباره أحد «الحاخامات» المتناسب مع العصور الحديثة، وهو ليس حاخامًا دينيًا، لكنه جديد انقلب على «مسيح اليهود المنتظر» واستحضر «المسيح الصهيوني البشري» لتأسيس وقيادة حركة علمانية لخدمة مصالح من يؤمن بها ومن يتبناها من القوى الاستعمارية. فبدلًا من انتظار «المسيح التوراتي الرباني» عند الحاخامين، صنع هرتزل من خلال الدعوة الصهيونية «مسيحًا» جديدًا هو «الصهيونية» كوسيلة لتحقيق «وعد الرب في أرض الميعاد» في ظروف، لا يعد فيها الاعتماد على «مسيح الرب» ذا جدوى عند اليهود، وإنما على «مسيح بشري» هو الحركة الصهيونية التي نشأت في نهاية القرن التاسع عشر، واليوم بعد مرور قرن من الزمان، ها هم أتباع «ما بعد الصهيونية» ودعاتهم من هرتسبيرغ إلى غيلمان يبدلون

«المسيح الصهيوني البشري الهرتزلي» إلى مسيح جديد هو «التقدم»، و «الذوبان» كوسيلة يراد من خلالها بالاستناد إلى الظروف المميزة الآن السعي إلى المحافظة على أهداف المشروع الصهيوني بوسائل حديثة.

وهذا ما سيجمع عليه معظم الصهيونيين في القرن القادم سواء تظاهر (شفايد) و (روبنشتاين) بانتقاد أفكار «ما بعد الصهيونية» أو لم يتظاهروا، وحتى لو اختلفوا حول المحور الأساسي الذي سيتعين على اليهودية الاستناد إليه «إسرائيل أو يهود العالم» فإن اختيارهم في النهاية سيقع على محورين أساسيين، لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر، وهما: المحور اليهودي في الولايات المتحدة الذي يضم عددا يفوق عدد اليهود في إسرائيل، و «المحور اليهودي في إسرائيل»، لكن المسألة غير القابلة للحل، والتي تثير تناقضًا حادًا بين المحورين هي «المذهبية اليهودية»، فالمحور اليهودي الأمريكي يسيطر عليه مذهب اليهود الإصلاحيين والمحافظين، وتجمعه صهيونية متجددة وهؤلاء يشكلون أكثر من 5 إلى 6 مليون يهودي أمريكي تقريبًا.(بموجب إحصاء قامت به المنظمات اليهودية الأميركية 1997-)

وسبق وأن تحدثنا عن تناقض مذهبهم، مع المذهب اليهودي الأورثوذكسي السائد عند يهود إسرائيل ودولتها.

فالثقافة والتربية الدينية اليهودية في كل محور منهما متناقضة مع الأخرى بشكل حاد، والثقافة اليهودية الإصلاحية، والمحافظة الليبرالية تنسجم جدًا مع بعض ميزات العالم الراهن الليبرالي الديمقراطي،

على نقيض الثقافة اليهودية الأورثوذكسية السائدة في إسرائيل عند الصهيونيين القوميين، واليهود غير الصهيونيين من «الحاراديم»، و «الحاسيديم» التي لا تعترف بالإصلاحيين وتعتبر مذهبهم كفرًا «برب إسرائيل» وانفصالًا عن التوراة والتلمود وبعدم الإيمان بانتظار «المسيح الحقيقي الرباني» القادم من السماء والعمل بوصايا «الرب» الكاملة.

لذلك سيتميز الصراع داخل يهود العالم، وإسرائيل بهذا الانقسام بين الثقافتين وأتباعهما، وفي سعي كل منهما للسيطرة على اليهود، والتحكم بهم، كل حسب برنامجها الأيديولوجي، أو السياسي الذي تؤمن به، وكذلك بالانقسام بين العلمانيين والصهيونيين، واليهود المتدينين الأورثوذكس. وسيظل هذا الصراع خفيا لا يظهر كلما تشكلت مصالح تجمع بين الجانبين من مواقعهما المختلفة

وهنا تمامًا يكمن بتقديرنا الانقسام داخل العالم اليهودي بشكل عام، وداخل المنتمين للحركة الصهيونية من ناحية انتمائها إلى المذهب الأورثوذكسي صاحب النفوذ في إسرائيل، أو إلى الإصلاحية الليبرالية كما هو الحال عند غالبية يهود الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وبعض دول أوروبا، أو إلى الصهيونية العلمانية المنقطعة عن الثقافة الدينية اليهودية، التي يمكنها الانسجام مع اليهودية الإصلاحية، والمحافظة الليبراليتين والتحالف معهما إذا دعت الضرورة.